

الفصل الأول

المبطل التاريخي العام لأحداث العصر العباسي الأول

obeykandi.com

أورد :

لمحة سريعة عن قيام الدولة العباسية

حتى أوائل سنة ١٣٢ هـ لم تكن قد ظهرت الكلمتان « العباسيون » و « العلويون » في أفق التاريخ ظهوراً واضحاً ، بل كان هناك تعبير واحد يشمل هؤلاء وأولئك ، ذلك هو « بنو هاشم » أو « الهاشميون » أو « آل البيت » ، وكان هؤلاء يكافون معاً ، وبنو تون بنى أمية متساندين ، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة ، التي اعتقدوا أنها حق لهم اغتصبه الأمويون .

وكان العنصران اللذان يتكون منهما « الهاشميون » يختلفان اختلافاً بيناً ؛ فالعلويون فيهم طيبة وصفاء ، يعتقدون أن الخلافة حقهم ، وأن الناس جميعاً يسهون ليردوها إليهم ، أما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة ؛ كانوا يوهمون العلويين بأنهم يعملون لهم ، ولكنهم في الواقع كانوا يعملون لأنفسهم ، يضعون في أيديهم زمام الموقف ، ويديرون لأنفسهم دفة الكفاح .

أما المتناف الذي كانت تسمعه الجماهير فهو أن الدعوة الجديدة تسير باسم الرضا من آل محمد ^(١) ، وهو - كما يبدو - اصطلاح عام يشمل العباسيين والعلويين ، ولكن الجماهير كانت تعتقد أنه علوى ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك ، وعلى هذا كان ظاهر الحركات للعلويين ، وكانت بواطنها ، وإدارة

(١) أى من يختار للخلافة من آل محمد عقب انتصار دعوة الهاشميين .

شؤونها ، وإمدادها بالدهاء والتوجيه ، يسيطر عليه العباسيون ؛ كما كان من نتائج ذلك أن دفع العلويون بكثير من ساداتهم وزعمائهم ضحايا في ذلك الميدان ، نحرّ فيه الحسين بن علي ، كما سقط فيه زيد حفيد الحسين ، ثم يحيى ابن زيد سالف الذكر ؛ ولم يكتف الأمويون بقتل زيد وابنه يحيى ، بل مثّلوا بجثثيهما ، وأحرقوهما ، حتى صارتا رماداً تذروه الرياح .

وإلى طيبة العلويين ، وعدم توافر الدهاء السياسي فيهم ، أضعف صفوفهم كثرة الخلاف بين زعمائهم ، وانشقاقُ الأتباع على هؤلاء الزعماء ، انشقاقاً أدى إلى قيام فرق كثيرة خرجت من أصل واحد ، كان قبلاً مرهوب الجانب ، عزيز السلطان ؛ وقد ظهر الخلاف في صفوف بني علي منذ عهدهم المبكر ، فبعد استشهاد الحسين في موقعة كربلاء غير المتكافئة « اختلف العلويون في قضية الإمامة ؛ أتنقل بعده إلى محمد بن علي وهو ابن الحنفية وليس بابن فاطمة ، أم إلى علي زين العابدين بن الحسين . ويصف التاريخ محمداً هذا بأنه أقوى من الحسن والحسين خلقاً ، وله حزب قوى يظاھره ويقدمه للإمامة وهم الكيسانية وهؤلاء يمتدّون أن الأئمة أربعة ، وهم علي وبنوه الثلاثة ، الحسن والحسين ومحمد (١) .

وقال كثير عزة في ذلك :

ألا إن الأئمة من قريش ولاية الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء

(١) دوايت دونالدش : عقيدة الشيعة ص ١١٣

وسببط لا تراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب الأيرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء^(١)

... وهكذا تقسم العلويون بعد مصرع الحسين قسمين : قسم اتبع محمد بن علي وقسم مال إلى علي زين العابدين ، وكان مما أضعف شوكة القسم الثاني جنوح زين العابدين إلى الهدوء ومسالمة الأمويين الذين غصبوا الخلافة من مستحقها ، وبعد موت علي زين العابدين تقسم أتباعه قسمين مع ولديه محمد الباقر وزيد ، كما كان في أولاد الحسن بن علي من ينافس أولاد عمهم الحسين في طلب ذلك الأمر ، وعلى هذا أصبح معسكر العلويين كثير الزعماء مختلف الآراء ، وكان من أقوى جماعات العلويين هذه الجماعة التي دانت بالولاء لمحمد بن الحنفية ، ثم لابنه أبي هاشم من بعده .
وهناك مركز هاشمي آخر كان يعمل أيضا ليشير السخط على الأمويين ، وليقوض عرشهم ، وله إدارة تمتاز بالدقة والكياسة والفظنة والدهاء ، ذلك المركز هو « الخيمة » ، وكان يستغل ضحايا العلويين ودماءهم وهو يهدم البيت الحاكم ، ويعمل على أن تتداعى دعائمه ، وتنهار أركانه .
ومن الخيمة خرج الفرع الهاشمي الذي أطلق عليه فيما بعد « العباسيون » ومن هنا لزم أن تمنحه مزيدا من العناية والإيضاح :

كان علي بن عبد الله بن العباس مسالما للأمويين وصديقا لهم ، لا يطلب شيئا لنفسه ، وكان يميل إلى الزهد والعبادة ، وقد أقطعه الوليد بن عبد الملك بلدة الخيمة من أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، فانتقل لها من الحجاز ، وأقام بها هو وأسرته ؛ ولم يكن موقع الخيمة ، ولا أخلاق علي بن عبد الله

(١) الأغاني ٨ : ٣١

ابن العباس ، عما يوحى بأن الخيمة تعمل جاهدة لقلب نظام الحكم ، ونقل السلطان من أسرة إلى أسرة ، ولذلك لم يحفل الأمويون كثيرا بمراقبتها ، وإقامة الأرصاد حولها ، وكانت الخيمة في الواقع ساكنة هادئة ، كما كان على بن عبد الله جديرا بالثقة التي أولاها له الأمويون ، أما محور النشاط والحركة والفكر ، فمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، الذي عرف بأنه راجح العقل ، كثير الفطنة ، كبير الوعي ، وقد انتفع بحوادث التاريخ ؛ فرأى أن الفشل الذريع كان دائما نصيب العلويين الذين قادوا الجيوش وهبوا فجأة في وجه الأمويين مطالبين بالخلافة ، كما رأى أن أتباعهم طالما تخلوا عنهم في أثناء المعركة لعدم تعمق الفكرة في نفوسهم ، ورأى كذلك أن البلاد الإسلامية ليست سواء في الاستجابة لدعوة الهاشميين .

وانتهى محمد بن علي من دراسته وتفكيره إلى وضع الأسس الآتية ليسيير عليها :

أولا : أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد ، وهو بهذا لا يغضب أولاد عمه من العلويين ، ثم هو لا يربط الدعوة بفرد معين ، حتى لا تضعف إذا مات أو اغتيل ، بل تظل الدعوة في طريقها إلى الإمام ، وإن قتل فرد أو أفراد من الزعماء أو الأتباع .

ثانيا : ألا يقوم الهاشميون بثورة لقلب نظام الحكم قبل أن يمهّدوا لها ، ويمهّدوا العدة لقيامها ، بإثارة الناس ضد الحكم القائم الغاشم ، وتهيئة النفوس للدعوة الجديدة .

ثالثا : أن يكون محور (الخيمة — السكوفة — خراسان) فتكون الخيمة مكان الإعداد والتنظيم والائتار ، وتكون السكوفة نقطة الاتصال .

ياتقى فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الخيمة ، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم ، وليتلقوا التعليمات الجديدة ، أما مقر العمل فليكن خراسان ، وهو اختيار ناجح كل النجاح ؛ خراسان تدين بالوراثة في السلطان أو نظرية الحق الملوكي المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين (The Divine Rights) ، وهي تريد أن تثار لكرامتها وسلطانها التليد الذي حطمه الأمويون ، وتسعى جاهدة في استعادة مجدها السالف بعد أن صيرهم الأمويون موالى لا يرقون إلى رتبة العرب الذين كانوا إلى عهد قريب أجلافا غلاظا ، وقد وصف محمد بن علي بن عبد الله لدعائه الولايات الإسلامية وميولها وصفاً دقيقاً في العبارة التالية :

أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف ، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فخرورية مارقة ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليسوا يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم تنوزعها النحل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وأصوات هائلة وبعد فاني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (١) .

وقبل أن نسير في وصف هذه الحركة ، يجدر بنا أن نقرر أن عاملين كبيرى الأهمية حدثا حوالى التقاء القرن الأول الهجرى والقرن الثانى ،

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢٩٣ — ٢٩٤

وكان لها أثر حسن في بدء حركة النضال بدءاً قوياً من جهة ، وفي تقوية جانب الخيمة من جهة أخرى :

العامل الأول : هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) التي أشاعت العدالة وملأت النفوس اطمئناناً ، وهيات للمعارضة أن تتكلم دون خوف من إراقة الدماء أو إزهاق الأرواح .

العامل الثاني : هو أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم طائفة الكيسانية أبرز الفرق العلوية المناضلة للأمويين ، قصد دمشق وافداً على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فبرّده هشام ووصله ، ثم رأى من فصاحته وسمو مكانته وعلمه ما حسده عليه وخوّفه منه ، فبعث إليه وهو في طريقه إلى المدينة من وضع له السم في لبن : فلما أحس بالآلم عدل إلى علي بن عبد الله ابن العباس بالخيمة فأعلمه أنه ميت ، وأوصى إليه ، وكان في صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه فيهم ثم مات (١) .

وليس الذي يهمنا فقط أن الخيمة كسبت عدداً من المناضلين لينضموا إلى صفوف رجالها ، وليكونوا هم وأتباعهم الكثيرون في خراسان والعراق قوة يعتمد عليها زعماء الخيمة ؛ بل الذي يهمّ فوق ذلك ، هو أن الجانب العملي والسلطة الفعلية التي كانت الخيمة مركزها ، قد قويت بإضافة الجانب النظري إليها ؛ فقد أصبح زعماء الخيمة وارثين لعلي بن أبي طالب ، بالإضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب .

وبدأ نضال الخيمة يظهر ، ويقسم المؤرخون فترة النضال قسمين : دور الدعوة الحالية من القوة ، ودور استعمال القوة والسيطرة بالسلاح

(١) السعدي : مروج الذهب ٢ : ٢٠١

على البلاد الخاضعة للأمويين . وقد استمر الدور الأول من مطلع القرن الثاني الهجري حتى سنة ١٢٧ هـ ، وكانت الخيمة في أثناء هذا الدور ترسل الدعاة إلى خراسان في ثوب تجار يدعون لآل البيت ، ويستثيرون العصبية ، وكان شيوخ الخيمة يكتبون مشايخ خراسان ودهاقينها ، وكان كثير من هؤلاء يستجيبون للدعوة سرّاً (١) .

أما الدور الثاني فيبدأ سنة ١٢٧ هـ حينما أرسل زعماء الخيمة أبا مسلم الخراساني ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين ، وقد تجمع مع أبي مسلم جموع المستجيبين للدعوة الجديدة ، ولقي زعماءهم حيث هتف فيهم :

أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب (٢) . وعقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير» (٣) ، وبدأ أبو مسلم كفاحه العنيف الناجح (٤) .

والذي يتحتم أن نبرزه هنا هو أن أبا مسلم كان داهية من دهاة السياسة ، فوق شجاعته ونبوغه في الحروب وميادين القتال ؛ وحنكته السياسية ومقدرته على حياكة المؤامرات والدسائس ، من أهم ما ضمن له النصر في هذا العراك الطويل ، ونسوق لذلك مثالين ذكرهما ابن الأثير :
لما وصل أبو مسلم خراسان أعدّ عدته ونظم عسكره وحصن موقعه ،

(١) الفخرى ١٢٢ — ١٢٣

(٢) العقد الفريد ١ : ١٤٨

(٣) سورة الحج الآية رقم ٣٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٣٣

ثم كتب إلى نصر بن سيار عامل الأمويين عليها كتاباً قال فيه :
من أبي مسلم إلى نصر بن سيار ، أما بعد : فإن الله تباركت أسماؤه ،
وتعالى ذكره ، عيّر أقواماً في القرآن فقال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ،
لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم
إلا نفوراً ؛ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ، ولا يحق المسكر السيئ
إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن
تجد لسنة الله تحويلاً » (١) .

وقد كبر على نصر أن يتلقى كتاباً كهذا من أبي مسلم ؛ يهدد فيه ، ويبدأ
بنفسه . وكان جواب نصر أن وجه إلى أبي مسلم جيشاً عظيماً بقيادة مولى له
اسمه يزيد ، فقابله جيش أبي مسلم بقيادة مالك بن أهيم الخزاعي ، ووضع
أبو مسلم في هذا الجيش صناديد رجاله ، وعرفهم أن هذه أول معركة ،
وعليها يتوقف مستقبل الدعوة الناشئة ، وبقي أبو مسلم ينظر عن كثب
إلى المعركة وهي تدور ، وكان مستعداً أن يدفع إليها أبطالاً جدداً إذا دعت
الحاجة ، ولكن انتظار أبي مسلم لم يطل ، فقد انهزم الجيش الأموي ، وأسر
قائده يزيد بعد أن جرح ، فأكرمه أبو مسلم ، وأنزله منزلاً حسناً ، وأمر
بمداواته حتى برأ ، ثم خيَّره بين البقاء معهم داخلًا في دعوتهم ، والرجوع
إلى نصر على أن يعطى عهد الله وميثاقه أن لا يحاربهم ، ولا يكذب عليهم ،
وأن يقول فيهم ما رأى ؛ فاختار الرجوع إلى مولاه وأعطى ذلك العهد .
وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع وسيفيدكم إفادة
كبيرة . فلما قدم يزيد على نصر قال له : لا مرحباً بك ، والله ما ظننت القوم

(١) سورة فاطر الآيتان ٤٢ ، ٤٣

استبقتوك إلا ليتخذوك حجة علينا . فقال يزيد : هو والله ما ظننت ، وقد استخلفوني ألا أكذب عليهم ؛ وأنا أقول انهم يصلون الصلاة لمواقبتها بأذان وإقامة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله كثيرا ، ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أظن أمرهم إلا سيعاوا ، ولولا أنك مولاي ، أعنتني من الرق ، ما رجعت إليك ، ولأقت معهم (١) .

وقد صدق حدس أبي مسلم ، وصدق ما توقعه نصر ؛ فقد كان ذلك الحادث فتحاً جديداً ، سبب انهيار الوفود على أبي مسلم ، كما سبب ألواناً من التراجع في صفوف نصر ، إذ كان الأمويون يذيعون أن هذه حركة مجوسية تسعى للقضاء على الإسلام وعلى النظام .

أما الحادث الثاني فهو مقدرة أبي مسلم ، الفائقة على استغلال العصية القبلية في خراسان ، وقد كان العرب هناك متنافرين متحاربين ، فهناك اليمينيون يقودهم السكرماني ثم ابنه علي من بعده . أما الزاريون فقد انقسموا جبهتين : يقود شيبان الحروري جبهة ربيعة ، وتدين مضر لنصر بن سيار الوالي الأموي . والعجيب أن القوم أدركوا أن دعوة أبي مسلم خطر عليهم جميعاً ، ولذلك فسكروا في نزاع الخلافات التي بينهم ، ووقف الحروب المشتعلة ولو وقفاً مؤقتاً ، ليتفرغ نصر بن سيار وحده أو بمساعدتهم لمحاربة أبي مسلم العدو المشترك ، ولكن أبا مسلم كان يقضاً كبير الفطنة ، ففرق بينهم كلما أوشك شملهم أن يجتمع ، وأوغر صدور طائفة على الأخرى ، وأثار الموتور منهم أن يطلب بالثأر من وائره ، فضمن لذلك أن يظل الخلاف بين قبائل العرب ؛ وأكثر من ذلك فقد تعاون مع فريق منهم وهم اليمينيون ليحارب

(١) ابن الأثير ٥ : ١٣٤

مضر ، واجتمع ضد نصر جيش أبي مسلم وجيش علي بن الكرماني ، وكان جيش الكرماني أسبق إلى الاشتباك بجيش نصر ، وتأخر جيش أبي مسلم قصداً ، وبينما كانت الحرب دائرة بين نصر وعلي بن الكرماني كان جيش أبي مسلم يتسوّر « مرو » ويزحف إلى دار الإمارة وأبو مسلم يتلو قوله تعالى « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته ، وهذا من عدوه » (١)

وهرب نصر بعد هزيمته في هذه الموقعة الفاصلة ، ثم تخلص أبو مسلم من زعماء اليمنيين وقد كان منذ حين حليفا لهم ، وواصل زحفه بعد ذلك حتى دانت له خراسان كلها (٢) .

وتقتضينا الأمانة التاريخية أن نقرر أن نصر بن سيار كان ذكياً واعياً ، بذل غاية الجهد في الوقوف أمام أبي مسلم وصد تياره ، ولكن الظروف كلها كانت تسير على غير ما يهوى وما يرسم ، ذكر المسعودي وغيره من المؤرخين كتباً ثلاثة أرسل بها نصر يستنجد ، ويصور الحالة التي تحيط به ، وفي كل كتاب من هذه الكتب مقطوعة من الشعر ، كأنه أرادها سجلاً ، أكثر من النثر خلوداً ، وأفصح تعبيراً ، وكان كتابه الأول إلى مروان الخليفة يستنجد به ويستمد منه العون ، وقد ضمنه الأبيات الآتية :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام

(١) القصص : الآية رقم ١٥ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٤١ وما بعدها .

فإن النار بالعودَيْن تُذَكَّى وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب لیت شعری أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحووا نياما فقل قوموا فقد حان القيام

ولكن مروان كان مشغولا بحروب الخوارج بالجزيرة ، وبحربه مع
نُعيم بن ثابت بالشام ، وبغير ذلك من الفتن ، فكتب إلى نصر يقول :
« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم أنت هذا الداء الذي
ظهر عندك » (١) .

أما الكتاب الثاني فقد وجهه نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل
مروان على العراق ، يستمد منه العون ويسأله النصرة ، وقد ضمنه أبياتاً
من الشعر يسجل فيها أن الشر الذي نبت في خراسان سيصل إلى العراق ،
إن لم يتعاون الجميع على كبحه والإجهاز عليه . وفيما يلي هذه
المقطوعة الشعرية :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينتُ إلا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها ينضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت لما يطرن ، وقد سُربان بالزَّغَب
فإن يطرن ولم يُحْتَلْ لهن بها يُلهِبْن نيران حرب أيما لهب
... ولكن نصراً لم يتلق أي عون من يزيد الذي تشاغل بدفع
فتن العراق (٢) .

(١) صروج الذهب ٢ : ٣٠٢

(٢) » » ٢ : ٢٠٣

أما الكتاب الثالث فقد كان إلى مروان الخليفة ، وقد أرسله نصر
بعد أن هزم في خراسان وغادرها ، وقد ذكر في هذا الكتاب أن هذا
الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن كتابه هذه الأبيات الشعرية :
إنّا وما نكنتم من أمرنا كالثور إذ قرّب للناسخ
أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكرأ وهى فى التاسع
كنا رفقها فقد مُزّقت وانسع الخرق على الراقع
كالشوب إذ أنهج فيه البلى أعيا على ذى الحيلة الصانع (١)
وقد نزل نصر بعد أن ترك خراسان (ساوة) من بلاد همدان والرى
فمات بها كمدأ (٢) .

وكان انتفاض خراسان على الدولة الأموية وخضوعها للعباسيين مطلقاً
رائعاً لا انتصارات الهاشميين ، قوى بعده جانبهم ، وعزت كلمتهم ، ثم سارت
الجيوش والفرق من خراسان تغزو وتنتصر ، حتى دان العالم الإسلامى
كله - ما عدا الأندلس - بالولاء لآل محمد ، ودالت دولة الأمويين
فى بلاد المشرق (٣) .

وكان أبو مسلم يتطلع إلى هذا النصر فيطرب وينشد :
أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

(٣) فصلت كتب التاريخ الأحداث والوقائع الحربية التى جرت لهذه الغاية مما يطول
ذكره هنا فليرجع إليها من شاء .

حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها الأسد (١)
ولنترك الآن خراسان بعد العرض الموجز لانتصاراتها لنعود إلى
« الحيمة » الرأس المدبر والعقل المفكر ولنعود كذلك إلى « الكوفة » نقطة
الاتصال بين الحيمة وخراسان :

ظل محمد بن علي بن عبدالله بن العباس يدبر الأمر بالحيمة ، ويرسل
الدعاة ويعين التقباء ويشرف منها على سير الأمور بالكوفة ، وعلى ما يدور
بخراسان ، وتوفي أبوه علي بن عبدالله سنة ١١٧ هـ فلم تغير وفاته من الأمر
شيئاً ، فقد سبق القول أنه كان زاهداً بعيداً عن متاعب السياسة والكفاح
ولذلك ظل محمد دموياً على العمل ، دون أن يشير حوله شك الأمويين
أو تفوح لهم منه شبهة ، وفي سنة ١٢٥ هـ توفي محمد بن علي بعد أن عهد إلى
ابنه إبراهيم بالأمر ، وكانت الدعوة تسير قدماً ، وتنتقل من نجاح إلى
نجاح ، وتولى مروان بن محمد عرش الخلافة الأموية عقب ذلك ، ولكنه
أحس أن الدنيا تنتفض عليه ، وأن عرشه يهتز من تحته ، وأن خراسان
على وجه الخصوص تضطرب ، وقد فقد سلطانه عليها ، فحاول جاهداً أن
يعرف من الرأس المدبر ، وباسم من تقوم هذه الحركة العاتية الطاغية ،
ولكنه فشل ؛ فكل شيء كان محكم التدبير متين الحبل ، ولم يظهر له الأمر
إلا بعد فوات الأوان ؛ يحكي المسعودي (٢) أن بعض أصحاب مروان ، ممن
وكل بالطرق ، أحضروا بين يديه رسولا من خراسان ، يحمل كتاباً من

(١) ابن خلدون ١ : ٢٨٢

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

أبى مسلم إلى إبراهيم الإمام يخبره فيه خبره ، وما آل إليه أمره ؛ فقال مروان للرسول : لا ترع .. كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ؛ قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً ، وامض بهذا الكتاب إلى إبراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فائتني به ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبى مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه ، وأن يقتل من يشك فيه أو من يتكلم العربية بخراسان ، وغير ذلك من أمره ونهيه ، فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء ، فيسير إلى الحميمة ليأخذ إبراهيم بن محمد ، فيشد وثاقه ويبحث به إليه في خيل كشيقة ؛ ففعل الوليد ما أمر به ، وجاء العامل إبراهيم وهو جالس بمسجد القرية ، وهو ملفف ، فقبض عليه ، ونفذ أمر الخليفة ، وكان ذلك في بدء سنة ١٣٢ هـ

وقد أدرك إبراهيم عاقبته ومصيره ، فولى أخاه أبا العباس عهده ، وعقد له من بعده ، وأمره بالمسير إلى الكوفة ، وأمر أهل بيته أن يسيروا معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى إليهم نفسه . فسار أبو العباس عبد الله ابن محمد ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله عمه ، وعيسى بن موسى ابن محمد بن علي وغيرهم إلى الكوفة ^(١) ، وانتهى بذلك دور الحميمة بعد أن تركت في التاريخ ذكر آخالد .

وأما إبراهيم الإمام فقد سيق إلى مروان حيث حبس في سجن حران ، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد ، ولم يزل في سجنه حتى مات ، ويقال

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٥

إن رأسه جعل في جراب فيه نُسُورَةٌ مَسْحُوقَةٌ ، فاضطرب ساعة ثم نهد (١)
وما قيل في رثائه :

قد كنت أحسبني جليلاً فضعضني قبرٌ بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم بين الصفائح والأشجار والطين

هذا ما كان من أمر الخيمة ، أما ما كان من أمر الكوفة ، فإن أول
من قام بالأمر فيها ميسرة مولى بنى العباس ، وكان من كبار أعوانه فيها
شيخ عظيم يدعى بكر بن ماهان ، وكان داهية واسع الثراء والجاه ، فساعد
آل البيت بجاهه وماله ، فلما مات ميسرة في عهد محمد بن علي ، أقامه محمد
مقام ميسرة بالكوفة ، وأصبح قائد الدعوة في هذه المنطقة ، وحلقة
الاتصال بين زعماء الخيمة ونشاط خراسان .

وكان بكر بن ماهان قد زوج ابنته من حفص بن سليمان المعروف
بأبي سلمة الخلّال ، فلما مرض بكر وحضرته الوفاة أيام إبراهيم الإمام
كتب بكر إلى إبراهيم يقول :

انه كتب في أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ،
وأنه قد استخلف حفص بن سليمان ..

فاستجاب إبراهيم لرأى بكر وكتب إلى أبي سلمة يأمره القيام بأمر
أصحابه ، وكتب إلى أهل خراسان أنه قد أسند أمرهم إليه (٢) ، وعندما توالى
الانتصارات للخراسانيين وأصبح واضحاً أن الفوز للهاشميين ، صار أبو سلمة
يلقب « وزير آل محمد » وكان أبو مسلم يكتابه : للأمير حفص بن سليمان

(١) السعوى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٥ والنورة : الجير .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٤ .

وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد^(١)
ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوزير أخذ لقب الوزارة قبل أن يأخذ
أحد من آل محمد لقب الخلافة .

ومن الطريف أن الكوفة التي أنشئت لتكون نقطة اتصال بين
خراسان والحيرة ، أصبحت في أوائل سنة ١٣٢ هـ نقطة الاتصال والالتقاء
بين الجيوش الزاحفة من خراسان والمهتفة لآل البيت ، وبين آل البيت
النازحين من الحيرة ، أو قُل الهاربين منها .

وأصبح أبو سلمة نفسه نقطة الاتصال ؛ فلتد سارت الجيوش الموالية
لهاشمين إلى الكوفة ، بعد أن انتصرت على ابن هبيرة في العراق ، وألجأته
إلى واسط ، فلما وصلت هذه الجيوش الكوفة لإحدى عشرة ليلة خلت
من المحرم سنة ١٣٢ هـ ، أظهروا أبا سلمة وسلموا إليه الرئاسة ، وحوالي
ذلك التاريخ وصل الكوفة سرّاء ركب الهاشمين القادم من الحيرة حيث
وضعوا مقاتليهم في يد أبي سلمة .

وسنذكر فيما بعد تفاصيل الأحداث التي جرت في هذه الفترة الوجيزة
ولسكننا هنا نسارع فنقول : أنه في خلال أيام من ذلك الالتقاء بايع الجماهير
أبا العباس بالخلافة وابتدأ أمر الدولة العباسية في الظهور .

(١) المرجع السابق ص ٨٥ .

الدولة العباسية في عصرها الأول

صادف العباسيون كثيراً من المتاعب ، وألوانا من المشاق والكفاح ، ولم يرضوا بالأرواح الطاهرة ولا بالدم الزكي في سبيل إقامة دولتهم ، ولكن قيامها لم يكن نهاية الكفاح ، ولم يضع حداً للشعب والعناء ، بل استمر هذا الجهاد بنفس العنف والقسوة للمحافظة على هذه الدولة ورعاية شئونها ، وكانت تتجدد المشكلات أمام الخلفاء العباسيين ، وكما تخطوا مشكلة برزت أخرى .

وهناك حقيقة ينبغي إبرازها وهي أن توالى الثورات والفتن في هذه الدولة جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة ، وأنه ينبغي للمحافظة عليها أن يقتلوا كل من حامى حوله شبه المروق ، أو التردد ، وهكذا تلاحقت الحركات ، وبالتالي توالى حملات الإيقاع والتنكيل ، وفيما يلي سورة موجزة لأحداث هذا العصر :

١ - الأمويون :

لم ينس زعماء الدولة الجديدة عقب انتصارهم ضحاياهم من الهاشمين الذين اعتدى عليهم الأمويون ، وأزهقوا أرواحهم ، وحينما تضرعت ابنة مروان بن محمد إلى صالح بن علي هاتفة : نحن بناتك وبنات أخيك ، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا ؛ أجاب : لا نستبقى منكم أحداً ، رجلاً ولا امرأة ؛ ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد ؟ ألم يقتل

هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين ، وقتل امرأة زيد بالحيرة يد
يوسف بن عمرو الثقفي ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ؟ ألم يقتل
عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي يد
عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ... فما الذي استبقيت
منا أهل البيت ؟ (١) .

وهكذا كان ينتقم العباسيون من الأمويين ، ومن أجل هذا كان
انتقامهم مرا قاسيا ، يقصدون به أن يثأروا لقتلهم ، وأن يضموا ألا تقوم
لدولة الأمويين قائمة ، أو يرتفع لها صوت ، وقد عقد الأصفهاني (٢) فصلا
خاصا عن ذكر من قُتل في عهد أبي العباس السفاح من بني أمية ، كما خصص
ابن الأثير (٣) فصلا مماثلا لهذا الغرض ، وفيما يلي طرف من ذلك :

لما استمرت الهزيمة مروان بن محمد وعبد الله بن علي يلاحقه ، أقام هذا بالرقّة ،
وأنفذ أخاه عبد الصمد في طلبه ، فصار إلى دمشق ثم أتبعه جيشا عليه أبو اسماعيل
عامر الطويل من قواد خراسان فلاحقه وقد جاز مصر في قرية تدعى بوصير
فقتله ، ووجه رأسه إلى عبد الله بن علي ، فأنفذه عبد الله إلى أبي العباس ،
فلما وضع بين يديه خر لله ساجدا ، ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذي
أظهرني عليك ، وأظفرتني بك ، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء
الدين ، ثم تمثل بقول الشاعر :

لو يشرّبون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٤)

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ (٢) الأغاني ٤ : ٩١ - ٩٤

(٣) الكامل في التاريخ ٥ : ١٦١ وما بعدها

(٤) الأغاني ٤ : ٩١ - ٩٢ ؛ ويروى أنه بعد أن قتل مروان واحتوى عامر على عسكره ،
دخل هذا إلى الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونساؤه ، فقعده على فراشه ، وأكل =

ودخل سديف الشاعر على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك
وقد أكرمه السفاح ، فقال سديف :

لا يفرّك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويّنا
جرد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا
فقال سليمان : قتلتنى يا شيخ .. ودخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل (١)
واستطاع عمرو بن مهاوية سليل بيت أبي سفيان أن يحصل على عفو
السفاح عنه وعن معه ، ولكن ما كاد سديف يعرف هذا حتى جدد مسخط
أبي العباس بقصيدته التي يقول فيها :

كيف بالعفو عنهم وقديما قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وتراث
والإمام الذي أصيب بحراً ن إمام الهدى ورأس الشقات
قتلوا آل أحمد لأعفا الذنوب لمروان غافر السيئات

فاستشاط أبو العباس غيظاً ، وجدد فيهم القتل والتنكيل .
وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشاة ،
وأمر بهم فجرّوا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب (٢) .
ودخل شبيل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي بالشمّام ،

== من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى : يا عامر : إن دهرأ أنزل مروان
عن فرشه ، حتى أفعدك عليها تأكل من طعامه ليلة قتله ، محتويّاً على أسره ، حاكفاً في
ملكه وحرمة وأهله ، لقادر أن يغير ذلك . فأتمى هذا الكلام إلى السفاح ، فاستنهمجن
ما فعله عامر ، وكتب إليه يوبخه . شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٠٥

(١) الأغاني ٤ : ٩٤ وابن الأثير ٥ : ١٦١

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٦١

وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام فأقبل عليه شبل فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وباس
لا تقين عبد شمس عثارا واقطن كل رقلة وغراس (١)
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاطني وغاظ سواي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بجران أمسى ثاويا بين غربة وتناسي

فلما سمع عبد الله ذلك أمر بهم فقتلوا جميعا ، وبسطت عليهم الانطاع
وجلس فوقها الخليفة ليأكل طعامه ، وهو يسمع أنين بعضهم (٢).

ولم يكتف العباسيون بالتنكيل بالأحياء بل أمر عبد الله بن علي بنبش
قبور بنى أمية بدمشق فنابش قبر معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك ، وهشام ،
فلم يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك ، فإنه
وجد صحيحاً لم يسبل منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه
وذراه بالريح ، مثلما فعل هذا يزيد بن علي بن الحسين منذ بضع سنوات (٣)

(١) الرقلة : النخلة فاتت اليد ، والمقصود بالرقلة والغراس من شب منهم ومن لا يزال طفلا .
(٢) المرجع السابق : وقد وردت هذه القصيدة في الأغاني ٤ : ٩٢-٩٣ منسوبة إلى سديف
كما ذكرت القصة في الأغاني والفخرى ص ١٢٩ على أنها وقعت أمام الخليفة .
(٣) ابن الأثير ٥ : ١٦١ .

ب - العلويون :

احتمل العلويون كما قلنا عبء الكفاح الطويل الشاق ، ولكنهم في طريقة عين وجدوا أنفسهم صفر اليدين ، بل زاد غيظهم لأن غيرهم جنى ثمار كفاحهم ، والفرس الذي سقوه بدمائهم ، ومن أجل هذا قامت قائمتهم ، وهبوا هنا وهناك يزعمون هذا البنيان ، ويحاولون أن يحطموا أركانه ، ولكن هيهات ، لقد كان بنيانا متين الأساس ، حديث التشييد . ولم يكن هداه سهلا ، فاضطرت القوات ، لايألو العلويون جهدا أن يثيروا العصيان والتمرد ، ولا يدخر العباسيون قوة في التكتيل بهم ، حتى ان المؤرخين يذكرون أن العلويين قاسوا من قسوة العباسيين ، أضعاف ما احتملوه من طغيان الأمويين ، وفيما يلي الخطوط الهامة لهذا الصراع العنيف :

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية : كان محمد من سادات قريش ، وأكثر رجالة فضلا وشرفا وعلمًا ، وقد امتنع عن مبايعة السفاح كما امتنع هو وأخوه إبراهيم عن البيعة المنصور ، وقد اختفى محمد منذ ظهور أمر العباسيين ، وجدَّ هؤلآء في البحث عنه دون جدوى ، ولما اشتد خوف المنصور منه ، نكل بأبيه عبد الله المحض ، وحبس آل الحسن كلهم ، فدفع ذلك محمدا إلى الظهور وإعلان ثورته في شهر رجب سنة ١٤٥ هـ ، وقد دخل المدينة ومعه بعض أعوانه ، فانهزم أمامهم أمير المدينة ، وأطلق سراح المسجونين ، واستتب لمحمد الأمر فيها . وكان المنصور في ذلك الحين مشغولا ببناء بغداد ، فأوقف العمل ، وسارع ليكون قريبا من الثائر ، وقد استطاع بمهارته أن يسد عليه مسالك النجاح ، فأقفل أبواب الكوفة لأن أهلها شيعة علويون يخشى أن ينضموا

لمحمد بن عبد الله ، كما أخذ يعمي الأخبار على أهل خراسان خوفاً من الانضمام بعواطفهم أو بسيفهم للشائر العلوي .

وأعد لمحاربته جيشاً بقيادة ولي عهده في ذلك الحين عيسى بن موسى وقال له : امض أيها الرجل ، فوائته ما يراد غيري وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص أنا ، فاستجاب عيسى وسار بجيشه ، ودارت رحى الحرب ، فانهمز العلويون وأعوانهم في رمضان من العام نفسه ، وخرَّ محمد صريعاً بعد أن أبدى ضروباً من البسالة والإقدام .

وتمتاز هذه الثورة العلوية عن غيرها من الثورات ، بالكتب الرائعة التي تبودلت بين أبي جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله ، وقد شجنت بالحجج السياسية والمنطقية والدينية ، وقد دافع كل منهما في كتبه إلى صاحبه عن وجهة نظره ، وبين أحييته بخلافة المسلمين ، ونقص حجج خصمه ، ولم تُجد هذه الكتب من الناحية العملية ، بل كان منطق السيف أقوى ، ولسكنها ظلت بالرغم من هذا سجلات هامة ، يرجع إليها الدارسون والباحثون . وكان المنصور يتولاها بنفسه ، فلما عرض عليه وزيره أبو أيوب أن يتولى الإجابة عنه ، قال : يا هذا ، ليس ذلك إليك ، إذا نحن تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها . . (١)

ابراهيم بن عبد الله : هو أخو النفس الزكية السالف الذكر ، وكان حصيفاً داهية ، اختفى عن عين المنصور ولسكن المنصور لم يختلف عن عينه ؛ يحكي

(١) الجهشيارى ص ١١٥ وانظر عن هذه الثورة وعن الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد ، ابن الأثير ٥ : ١٩٦ وما بعدها ومروج الذهب ٢ : ٢٣٧ وما بعدها . والفخرى ص ١٤٢ وما بعدها . والطبري الجزء التاسع : وصبح الأعشى الجزء الأول ص ٢٣١ وما بعدها .

ابن طباطبا (١) أن إبراهيم كان في حالة تقيبه يحضر إلى شمسك المنصور
متخفياً ، وربما جلس على السباط . وقد نزل إبراهيم السكوفة ليقوم بدعوته
فيها ، ولكن المنصور عرف أمره فبث حوله الأرصاء والعميون ، فلم يجد
دأ من الحيلة لمغادرتها إلى البصرة فأرسل رجلاً من أتباعه يسمى سفيان
ابن زيد إلى المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين ، تؤمنني وأدلك على إبراهيم ؟
قال : أنت آمن ، وأين هو ؟ قال بالبصرة فوجهه معي برجل تثق به ،
واحملني على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه فيقبض
عليه ، فوجهه معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة
من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع أبي سويد على خيل
البريد ، فلما وصل البريد إلى البصرة قال سفيان لأبي سويد : انتظر حتى
أتعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف
هو إبراهيم بن عبد الله (٢) .

وأخذ إبراهيم يدعو إلى نفسه بالبصرة ، وانهز فرصة اشتغال المنصور
حرب أخيه فتوسع في فتوحاته ، حتى امتدت إلى الأهواز وواسط ،
ولكن ما كاد عيسى بن موسى ينتهي من حرب محمد بن عبد الله ، حتى جاءه
كتاب المنصور يستحثه بالقدوم ليتولى حرب إبراهيم ، فسار إليه وهزم
جيشه وقتله قبيل نهاية ذي القعدة من العام الذي قُتل فيه أخوه (٣) .

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب : كان الحسين
ابن علي من سادة رجال بني هاشم وفضلائهم ، وكان قد عزم على

(١) الفخرى ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ يعقوبى ٢ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٣) انظر المراجع السابقة .

الخروج ، واتفق معه جماعه من أعيان أهل بيته ، ثم وقع من عامل المدينة
تمضم لبعض آل علي ، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك ، واجتمع على الحسين
ناسٌ كثيرٌ فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين بن علي
فلما عرف الهادي خليفة ذلك الوقت خبر هذه الثورة ، أرسل إليهم محمد
ابن سليمان بن علي في عسكر فالتقوا بموضع يقال له « فخ » بين مكة والمدينة
فاقتلوا قتالا شديداً ، ثم قتل الحسين بن علي وحمل رأسه إلى موسى
الهادي .^(١) ولم تنته موقعة فخ عند هذا الحد بل فرّ منها رجالان من العلويين
كان لهما شأن كبير في التاريخ فيما بعد علي ما سيلى إيضاحه :

يحيى بن عبد الله : هو أحد الرجلين اللذين فرّا في موقعة فخ ، وقد سار
إلى بلاد الديلم ، ودعا لنفسه ، فاشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه
الناس من الأمصار ، وكان ذلك في عهد الرشيد ، فاعتم الرشيد بذلك ، وندب
له الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً ، وولاه جرجان وطبرستان والرّى
وغير ذلك ، فتوجه الفضل بالجنود ، فلطف بالثائر العلوي وحذره وخوفه
ورغبه وبسط أمره ، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألف ألف درهم على
أن يسّهل له موافقة يحيى ، على الصلح ، فوافق يحيى على ذلك على أن يكتب
له الرشيد أماناً بخطه ، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم
ومشايخهم ، فأجابه الرشيد إلى ذلك وسرّ به ، وعظمت بذلك منزلة الفضل
عنده ، وسير الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم يحيى مع الفضل بغداد ، فلقبه
الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير .^(٢)

(١) الفخرى ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠ ، مروح الذهب ج ٢
ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

ثم خاف الرشيد منه بعد ذلك فقبض عليه وسجنه ، وسعى أحد الزبيريين بالسجين العلوي وقال : إنه يدعو لنفسه فجمع الرشيد بينهما فأنكر يحيى ما ادّعاه الزبيرى ، وطلب منه أن يحلف فقال الزبيرى : والله الطالب الغالب ولكن يحيى قاطعه قائلا : دع هذه اليمين فإن الله إذا مجّده العبد الحانت لم يعجل عقوبته ، ولكن احلف بيمين البراءة ، وقل برئت من حول الله وقوته ، ودخلت في حول نفسى وقوتها إن كان فارتاع الزبيرى من هذه اليمين وتردد ، ولكن الرشيد سأله : ما معنى امتناعك إن كنت صادقا ؟. ولم يجد الرجل بداً من الحلف ففعل ، ولكن ما انقضى النهار حتى مات (١) .

وكان البرامكة يحسون أنهم مسئولون عن سلامة يحيى ، لأنهم الذين استنزلوه من حصونه ، ولهذا سهلوا له سبيل الخروج من بغداد بعدما توثقوا منه أنه لن يقوم بنشاط ما ، وقد نقم الرشيد منهم ذلك فكان هذا من أسباب الإيقاع بهم على ماسياتى ، أما يحيى بن عبد الله فقد أعيد القبض عليه وقتله الرشيد شر قتلة .

ادريس بن عبد الله : هو الرجل الثانى الذى فر من موقعة « فح » ، وقد ولّى شطره تجاه مصر وعبرها حتى استقر فى شمال أفريقيا بالمغرب الأقصى وقد التف حوله البربر واعتنقوا دعوته ، فأشأ هناك الدولة الادريسية ، والبربر أشداء أقوياء ، ثم هم بمنأى عن بغداد عاصمة الخلافة ، ولذلك تردد الخليفة فى أن يرسل له جيشاً لمحاربته ، خوفاً على الجيش فى هذه البقاع الجرداء ، ولأنه ظن أن جيشه لو هزم لكان فى ذلك إغرام لإدريس

(١) الفخرى ص ١٧١

وحشا له على مواصلة الهجوم على الدولة في مصر وتجاه الشام ، ويقال إن الرشيد لجأ إلى حيلة غير كريمة ، فبعث رجلاً داهية اسمه سليمان بن جبريل نظاماً بالخروج على العباسيين ، والهجوم لإدريس فظلم أن له إدريس وقربه وأخذ بسحر بيانه ، وبهذا أتى إدريس من مأمنه فقد دس له الرجل السم فقتله ، غير أن القضاء على إدريس لم يسكن قضاء على الدولة الإدريسية ، فإن البربر أجمعوا أمرهم على أن يظلوا على استقلالهم وكان إدريس قد ترك أمة ساحلاً ، فانتظروا وضعها فلما وضعت ولدا ذكراً أسموه إدريس ، ودانوا له بالطاعة ، كما دانوا من قبل لأبيه ، وكانت الدولة الإدريسية أول دولة تنشق من العالم الذي كان يدين للعباسيين بالولاء ، ولم يجد الرشيد بداً من أن يُقطع إبراهيم بن الأغلب منطقة تونس ليقف في وجه الإدارة إذا عزموا الزحف على مصر والشام ، وقد تكونت فيما بعد دولة الأغلبية على أثر هذا الاقطاع (١).

محمد الديباج : هو محمد بن جعفر الصادق ، وعلى الرغم من تسامح المأمون مع العلويين وحسن تقديره لهم ، فقد خرج عليه محمد الديباج ودعا لنفسه بمكة ، فاستجاب له أهل مكة وبايعوه بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسن له ذلك . وكان محمد بن جعفر شيخاً عالمياً يُقرأ عليه العلم وقد روى عن أبيه علماً جما ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه فلم تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكراً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه . (٢)

(١) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وأبا الفدا : المختصر في تاريخ البشر ٢ : ١٣

(٢) المنذرى ص ١٩٥ .

جـ - ثورات أخرى وفتن :

حفل العهد العباسي بألوان من الثورات ، وصنوف من الفتن السياسية والدينية والعنصرية ، وكان الفرس مصدراً هاماً لمثل هذه الحركات ، إذ أن الكثيرين منهم أنفقوا أن يخضعوا لسلطان العرب ، كما أن الكثيرين منهم لم يفتحوا قلوبهم للإسلام ولم يتقبلوه تقبلاً حسنًا .

وبالإضافة إلى حركات الفرس نشط الخوارج في ذلك العهد بعد أن ضعضعتهم قسوة الأمويين وشدة بأسهم ، والخوارج كما هو معروف عنهم لا يأبسون بالموت ولا يرعبهم سيل الدماء ، وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم ويقاقتون من يتصدى لهم .

وفي هذا الفصل وصف موجز لبعض الحركات التي هبت في وجه العباسيين وشغلتهم كثيراً :

١ - الخوارج : كانت البلاد الإسلامية الواقعة في شمال إفريقيا مسرحاً لحركات الخوارج خلال مدة أبي جعفر المنصور ، وقد عانى عمر بن حفص وإلى هذه البلاد هو ورجاله ألواناً من اعتداءات الخوارج وتشكيلهم وقد استطاع أبو حاتم الخارجي أن يحاصر القيروان حتى اشتدت الحال على أهلها فلم يبق في بيت مالها دينار ، ولا عند أهلها شيء من طعام ، ودام الحصار ثمانية أشهر ، وكان الجنود يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفي النهار حتى جدهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم ، وقد قتل عمر بن حفص في أحد معاركه مع الخوارج ، فلما عرف المنصور ذلك أرسل يزيد بن حاتم في ستين ألف فارس فالتقى بالخوارج وبمن معهم من البربر فهزمهم

هزيمة شنيعة ، وشقت جموعهم ، وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً ، وكان جند الخليفة يقتلون الخوارج ويقولون : يا لثارات عمر بن حفص (١) .

وفي عهد المهدي ثار عبد السلام بن هاشم الشكري بالجزيرة ، واشتدت شوكرته ، وكثر اتباعه ، وهزم عسكر المهدي ، وقتل قائد العسكر ، فأعد المهدي لحربه جيشاً بقيادة شبيب بن واثق ، ومنح كل فارس في هذا الجيش ألف درهم مهونة وقد استطاع هذا الجيش أن يتغلب على الثائر ويقتله (٢) .

ثم ثار بالموصل خارجي اسمه ياسين بن بني تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم ، وتغلب على أكثر ديار ريعة والجزيرة ، فوجه إليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين فخارباه ، فصبر لهما حتى قتل مع عدة من أصحابه وانهمز الباقيون (٣) .

وفي عهد الرشيد هبت الخوارج عاصفة قوية كان يقودها رجل ذو بأس شديد ، أعاد للخوارج عهدهم الزاهر في أيام بني أمية . . ذلك هو الوليد بن طريف الذي يقول عن نفسه :

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بشاري

وقد ثار الوليد في الجزيرة سنة ١٧٨ هـ واشتدت بها شوكرته ، وكثر أتباعه ، وهزم عدة من جيوش الرشيد ، فاتجهت للقضاء عليه عناية الخليفة ، فاختار بطلا من رجاله هو « يزيد بن يزيد » وهو ابن أخي معن بن زائدة ، والوليد بن طريف ويزيد بن يزيد كلاهما من وائل ، وكلاهما في الحرب ليث غاب . قال فيهما أحد الشعراء :

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .

(٢) » » ج ٦ ص ١٩ .

(٣) » » ج ٦ ص ٢٦ .

وائل بعضهم يقتل بعضا لا يفل الحديد إلا الحديد
وقد جعل يزيد يخاتل الوليد ويمكر به ، دون أن يوقع به ، ودون أن
يظهر له عنف القادة وقسوتهم ، ولكن مسلم بن الوليد يلجأ إلى حسن التعليل
فيصف ذلك بقوله :

يفتر عند افتزار الحرب مبتدئا إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسمى إلى أهل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلا يأتي على مهل

ولكن الرشيد غضب لهذا التواني من يزيد وكتب إليه « لو وجهت
أحد الخدم لقام بأحسن مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم
بالله إن أخرت منا جزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك » فاستعد يزيد
للقاء الفاصل ، والتقى الجيشان ، وفي وسط المعركة أحس يزيد بعطش قاتل ،
ولكنه رمى بخاتمه في فيه وجعل يلوكه ويقول : اللهم إنها شدة شديدة
فاسترها . وكان له النصر . ويقال إن أسد بن يزيد كان شديد الشبه بأبيه
لا يفصل بينهما إلا ضربة في وجه يزيد فكان أسد يتمنى مثلها وقد تحققت
أمنيته في تلك المعركة فأصابته ضربة كأنما خطت على ضربة أبيه . وخر
الوليد قتيلا في هذه المعركة فرثته أخته ليلى بقصيدة مؤثرة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
قتى لا يحب الزاد إلا من النقي ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدنا الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجا لعدو أو نجنا لضعيف

ألا يا لقوم اللّهام واللبلى
 واليد من بين السكواكب إذهوى
 وليت كل الليث إذ يحملونه
 عليه سلام الله وقها فإتى
 وللأرض همت بعده برجوف
 وللشمس لما أزمعت لكسوف
 إلى حفرة دلوحة وسقوف
 أرى الموت وقاعا بكل شريف^(١)

٣ — الراوندية : تنسب هذه الطائفة إلى مدينة « راوند » وهي
 بالقرب من أصفهان ، وقد كانت هذه المدينة مهد دعوة الراوندية ،
 ومن ثم نسبوا إليها .

وكانت هذه الجماعة تقصد إلى أن تثار لأبي مسلم الخرساني ، ولكنها
 اتخذت طريقاً ملتوياً ترى به أن تعمى على الخليفة فتُظهر له الاجلال
 والعبودية وتؤلفه لعله يرضى عن ذلك ، فيشور الناس عليه ، وكانوا
 يقولون بتناسخ الأرواح ، وعبادة المنصور ، وأنه الذي يطعمهم
 ويسقيهم ، وقد جاءوا إلى قصر المنصور فطافوا به ، وقالوا : هذا
 قصر ربنا ، فأخذ المنصور رؤسائهم وحبس منهم مائتي رجل ، وقد ثار
 الباكون عليه فخرج لهم المنصور ، ويبدو أنه ظن أنهم ربما امتنعوا عن أن
 يمسه بسوء وهو إلههم كما يزعمون . ولكنهم تسكأروا عليه وكادوا يقتلونه
 وفي هذا الوقت قفز رجل ملثم ، وقاتل بين يدي المنصور قتالا شديداً
 وأبلى بلاء حسناً ، ولم يزل يقاتل حتى تكشف الحال عن نصر له مظفر
 وعن هزيمة ساحقة للراوندية ، وحينئذ قال له المنصور : من أنت ؟ قال
 طابتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فقال المنصور : أمّك الله على
 نفسك ومالك وأهلك ، فمثلك يصطنع ، وأحسن إليه ، وولاه اليمن . وكان

(١) ابن الأثير ٦ : ٤٧ — ٤٨ بتصرف والأغاني ١١ : ٨ — ٩

معن مستتراً من المنصور بسبب قتاله مع ابن هبيرة ضد جيوش العباسيين^(١) وقد حدثت هذه المعركة في مدينة « الهاشمية »^(٢) ولذلك كان يطلق على هذه المعركة « يوم الهاشمية » وقد ورد ذكر ذلك اليوم في قصيدة مروان بن أبي حفصة التي منحه عليها معن بن زائدة ، مائة ألف درهم . ويروى المسعودي^(٣) أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له : هيه يامعن ، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :
معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
إن كعدَّ أيام الفعّال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طمان
فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته لقوله :
مازلت يوم الهاشمية معانسا بالسيف دون خليفة الرحمن
فنهنت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهتد وسنان
فقال المنصور : أحسنت يامعن^(٤) .

٣ - الزنادقة : كان يطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب المانوية (أو الثنوية أى النور والظلمة) ثم اتسع معنى هذا اللفظ حتى أطلق على كل ملحد أو مبتدع ، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، أو من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب وكان التطرف والاستهتار سمة هؤلاء حتى قلدهم فيها من ليس على مذهبهم كآبي جعفر بن زياد الذي قيلت فيه الأبيات التالية :

(١) ابن الأثير ٥ : ١٨٧ - ١٨٨ ، الفخرى ١٣٨ - ١٣٩

(٢) اقرأ شيئاً عن مدينة الهاشمية ص ٥٧ من هذا الكتاب .

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٣١ - ٢٣٢

(٤) انظر أيضا الأغاني ٩ ص ٤١

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديننا غير ما تخلقى
مزدك الظاهر باللفظ فى باطن إسلام قفى عفى
لست بزندق ولكنى أردت أن توبىم بالظرف

أما الزندقة التى شغلت العباسيين وتفشيت بين رعاياهم ، فقد وصفها الخليفة المهدي لابنه الهادي بقوله : يا بنى ، إذا صار الأمر إليك ، فتجرد هذه العصاة ، يعنى عصاة ماني ؛ فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها من هذا إلى تحريم المأخوذ ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تخرجها ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطريق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله . فإنى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين (١) .

وقد ظهرت الزندقة قبل أن يظهر الإسلام ، فالزندقة ليست خروجا على الإسلام خاصة ، وإنما هى خروج على جميع الأديان ، وعلى كل القيم والمعايير الأخلاقية السليمة .

وأشهر فرق الزندقة تنسب إلى مزدك ، الذى ظهر فى أيام قباض ابن فيروز ، ودعا الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحرّم ، وألا يمتنع أحد منهم أخاه ما يريد من ذلك (٢) .

(١) الطبرى ١٠ : ٤٢ وابن الأثير ٦ : ٣٥

(٢) الأغاني ٨ : ٦١

وظاهر من الزنادقة في العهد الأموي عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب
الوليد بن يزيد ، والجعد بن أدهم مؤدب مروان بن محمد ، ثم ظهر حماد عجرد ،
وهو كما يقول أبو الفرج الأصفهاني (١) « من مخضرمي الدولتين الأموية
والعباسية ، إلا أنه لم يشتهر في أيام بني أمية شهرته في أيام بني العباس ،
وكان خليعاً ماجناً متهماً في دينه ، مرمياً بالزندقة ، وفي خبر آخر يقول :
« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم حمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ،
وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون
معاصرة جملة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعاً ،
وأشهرهم بها حماد عجرد ، (٢) .

وكان أبو نواس زنديقاً أيضاً ، ولسكنه يبرأ من الزندقة ، ويقول إن
السبب في أنه رمى بها أنه قال مرة لحماد :

ادع غيري إلى عبادة الاثني ن فإني بواحد مشغول

ولسكن حمادا أذاع هذا البيت ونسبه إلى بشار بعد أن جعله .

ادع غيري إلى عبادة الاثني ن فإني عن واحد مشغول

وحاول أبو نواس أن يظهر برامته ولسكنه لم يتمكن ، فألقى به في حبس
الزندقة ، وعن ذلك الحبس يقول أبو نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد
إنما يرمى بالزندقة لجونه في شعره ، حتى حبست في حبس الزنادقة ، فإذا
حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذاله شعر مزاج بيتين بيتين ، يقرمون به
في صلواتهم (٣) .

(١) الأغاني ١٣ : ٧٠

(٢) الرجع نفسه .

(٣) الأغاني ١٣ : ٧١

وكان الزنادقة يدينون بما اعتنقوه ؛ فافكارهم هندم عقيدة ودين ،
ومن أجل هذا كانوا يعترفون بها إذا سئلوا عنها ، وإن كان في ذلك
الاعتراف حتفهم ، ولقد قُدم المهدي يوماً زنديق فسأله المهدي فاعترف ،
فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلابه (١) .

ويقول الجهمياري (٢) إن من يعتقد الزندقة قوماً يرون أن جهنم
ما يدينون به محظور ، وأن النقية غير جائزة ، وقد اتهم يزيد بن الفيض
كاتب المنصور بالزندقة في عهد المهدي فلما سئل أقر بالزندقة فحبس ،
وهرب من الحبس فلم يُستدر عليه (٣) .

وكان المهدي أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعاً بالزندقة وتعتباً لهم ،
وقد عين موظفاً خاصاً لهذا الغرض أسماه « صاحب الزنادقة » ومن شغل
هذا المنصب عمر الكلوداني ثم محمد بن عيسى بن حمدويه الذي قتل من
الزندقة خلقاً كثيراً كما يقول ابن الأثير (٤) .

وقد أوصى المهدي ابنه الهادي أن يتعقب هذه الطائفة كما سبق ، وقد
استجاب الهادي لوصية أبيه ، فكان شديداً عليهم ، كثير الطالب لهم ، واسكن
عهده كان قصيراً ، يروى أنه قال : لأقتل هذه الفرقة ؛ وأمر أن يهيا له ألف
جذع ، فمات بعد هذا القول بشهرين (٥) .

وكثيراً ما اتهم أناس بالزندقة للتسكيل بهم دون أن يكونوا زنادقة ،

(١) الطبري ١٠ : ٤٢

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٣

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦

(٤) الكامل في التاريخ ٦ : ٢٦

(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٥

أى أن الرعى بالزندقة اتخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء في كثير من الأحيان .

د - ولاية العهد :

كانت ولاية العهد مثار متاعب للخلفاء في هذا العهد ، وكان التفكير فيها يستنفذ كثيراً من نشاطهم ، والعجيب أن أغلب قصور خلفاء هذه الفترة التي نسفها شغلت بهذا الأمر ، شغل به المنصور والمهدي والهادي والرشد الأمين وفيما يلي سجل هذه الأحداث .

عبد الله بن علي : كان السفاح قبيل وفاته قد عقد لأخيه المنصور وجعله ولي عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، ثم توفي السفاح بعد ذلك بمدة وجيزة ، وكان المنصور آنذاك حاجاً بمكة ، فقام عيسى بن موسى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وكتب له يعلمه بموت السفاح والبيعة له ؛ وقد جزع أبو جعفر عندما وصله الخبر جزعاً شديداً ، فماله أبو مسلم الخراساني وكان يجمع معه : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ فقال : أتخوف شر عمي عبد الله بن علي وشقيقه علي ؟ قال أبو مسلم لا تخفه فأنا أكتفيك إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان ، وهم لا يعصونني ؛ فسرّى عن المنصور ، وبايع له أبو مسلم كما بايع له الناس هناك . ولما عرف عبد الله بن علي خبر وفاة السفاح والبيعة للمنصور ، أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة . فاجتمعوا عليه ، فقرأ عليهم كتاب عيسى ابن موسى إليه بوفاة السفاح ، ودعاهم إلى نفسه ، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد ، دعا بني أبيه فأرادهم إلى السير إليه ، وقال : من انتدب منكم فسار إليه فهو وليّ عهدي ، فلم ينتدب غيري ، وعلي هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت ، وشهد له أبو غانم الطائي

وبخفاف المروزي وغيرهما من القواد ، فبايعه جيشه كما بايعه أهل الشام والجزيرة ، وانسع نفوذه في هذه البقاع ، وهكذا أعلن عبد الله بن علي تمرده على الخليفة الجديد ، فتمحقق بذلك ما توقعه المنصور .

ولما عرف المنصور ما فعله عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها - وللهن أيامهن عواقب وسيتر إليه جيشاً عظيماً بقيادة أبي مسلم ، وهكذا تقف وجهاً لوجه قوتان عظيمتان على رأسيهما أعظم قائدين في ذلك التاريخ ، وقد جرت عدة أحداث جعلت كفة أبي مسلم ترجح كفة عبد الله بن علي ، ومن ذلك ما يذكره المؤرخون من أن عبد الله خاف ألا يناصحته أهل خراسان الذين كانوا معه ، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً ، ولكن هذا الرقم يبدو أنه مبالغ فيه إلى حد كبير ، ومن ذلك أيضاً ما روى أن عبد الله تشكك في قائد من أمهر قواده هو حميد بن قحطبة . وأراد أن يتخلص منه ، ولكن الطريق الذي سلكه لذلك لم يكن طريقاً حكيماً . فإنه أخبره أنه ولاءه إمارة حلب وكتب معه كتاباً إلى واليها ، فلما سار حميد ومن معه شوطاً بدأ حميد يوجس خيفة من الكتاب المغاق الذي يحمله ، ففتحه فوجد به أمراً بالفتك به موجهاً إلى والي حلب ، فقرأه حميد على من معه ، وأخبرهم عزمه على أن يتحدر إلى العراق ، فتبعه ناس كثيرون ممن كانوا معه ؛ ومن ذلك أيضاً خدعة قام بها أبو مسلم فان جيش عبد الله كان قد اتخذ له مكاناً حصيناً عسكر فيه ، فأرسل أبو مسلم إليه يقول : إني لم أؤمر بقتالك . ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام ، فأنا أريدها فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام : كيف نكون معك وهذا يأتي بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي

ذرائعنا ؟ ولكن نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله ؛ وعيناً حاول عبد الله أن يخبرهم أنها خدعة من أبي مسلم ؛ فلما نزل عبد الله عند رغبتهم ، وترك مكانه الحصين وتحول نحو الشام ، تحول أبو مسلم وعسكر في ذلك المكان الحصين .

ودارت الحرب الضروس بين القوتين المائتين ، وكانت سجالات في أغلب معاركها ، وبعد خمسة أشهر استطاع أبو مسلم أن ينتصر وأن يهزم أصحاب عبد الله ، ولما أحس عبد الله بالهزيمة سأل أحد أصفياه أن يشير عليه بالفرار أو بالبقاء فأشار عليه أن يصبر ويقاوم حتى الموت ، فإن الفرار قبيح بمثله ، وقد عابه على مروان بن محمد ، ولكن الحرص على البقاء تغلب على عبد الله ، فإنه فر ولجأ إلى أخيه سليمان بن علي أمير البصرة ، واستطاع بهذا أن يطيل عمره فترة من الزمن ، ولما سلكها بلا شك فترة مملوءة بالأكدار وبفرار عبد الله استسلم جيشه فخواه أبو مسلم ^(١)

ويخطر الآن بالذهن سؤالان لها شيء من الأهمية :

أولاً — هل حقيقة وعد السفاح عبد الله بولاية العهد وبماذا توحى الروايات التاريخية ؟

الظاهر لي صدق عبد الله في هذا الزعم ؛ بدليل شهادة هؤلاء الشهود واستمرارهم على الكفاح بجانبه هذه المدة الطويلة دون أن تظهر أية بادرة لخوهم أو رجوعهم عن زعمهم ، ثم إن توقع المنصور أن يشور عبد الله دون سواه ليدل على أن هناك وعداً من السفاح توقع المنصور أن يكون

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧٣ — ١٧٥ ، مروج الذهب للمسعودي ص ٢٣٤ ، الجهشيارى

دعامة يعتمد عليها عبد الله في دعواه ، غير أن وعد السفاح إن كان قد حصل فإنه لم يدعم بسجل كتابي .

ثانياً : وإذا كان عبد الله يسمى لهذا المنصب لأنه رأى في نفسه الكفاءة له ، فلماذا ثار على المنصور ولم يثر على السفاح ؟

الجواب أن الوقت الذي ولى فيه السفاح لم يكن يسمح بالخلاف بين صفوف السياسيين ؛ فكل ما كانوا يهتمون به في ذلك الحين هو نزع السلطان عن الأمويين ، وجعل الخلافة فيهم ليحققوا بذلك هدفًا طال سعيهم إليه ، وكفاحهم من أجله .

وهل كان منصب الخلافة في ذلك الوقت منصباً براقاً يدعو للتنافس ؟ . . . اعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالنفي . . . لأن السفاح تولى في فترة شاذة ، ولا تزال لدى مروان جيوش قوية تدافع عنه ، فالذى يشغل هذا المنصب سيكون كبش الفداء لو أصيبت الحركة بنمكس ولو مدة قصيرة .

عيسى بن موسى : سبق لنا أن ذكرنا أننا أن السفاح قبل وفاته عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، وقد كان المنصور في السنين الأولى من خلافته يستعين بعيسى بن موسى في المهمات ، ويلقى به في خضم الأحداث ليدفع به النوازل ، وقد قال له المنصور عند ما ثار العلويون : والله ما يراد إلا أنا أو أنت . فإما أن تذهب لقتالهم أو أذهب أنا ؛ وقد كان عيسى يتقبل هذا بمزيد من الرضا ؛ أليس ولى عهد المسلمين وهذا الملك سيؤول إليه يوماً ، ولكن المنصور كان يريد شيئاً آخر ، فإنه ما كاد يحس باستقامة الأمور إليه على ما يهوى حتى كشف عن نيته ، لينحزح عيسى بن موسى ويقدم عليه ابنه

المهدى، وإن ارتكب من أجل ذلك أبعد الشطط، وأوقع الناس في الحرج،
إذ كانوا قد أقسموا أغلظ الأيمان أن يحترموا الوثيقة التي دونها السفاح .
وواجه المنصور عيسى بالأمر والتمس منه زحزحة نفسه ليتقدم المهدي
عليه في ولاية العهد، ولكن عيسى رفض هذا وقال : ماذا أصنع بالإيمان
التي في رقبتي وفي رقاب الناس بالعقاق والطلاق والحج والصدقة ؛ ليس
إلى ذلك نسيل ؛ فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباحدة ، وصار يأذن
للمهدي قبله ، ويجلسه عن يمينه في المكان الذي كان يجلس فيه عيسى، وأخذ
يتقصّد أذاه ، فكان يأمر أن يُحفر الحائط من المكان الذي جلس فيه عيسى
ينتظر الإذن ، وبهذا يستقطب التراب على رأسه ، ثم يأذن له فيدخل دون أن
ينفض التراب ، فيقول له المنصور : يا عيسى ، ما يدخل على أحد بمثل
ما تدخل أنت به من الثياب والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى :
أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ ولا يشكو .

وهناك أساليب كثيرة من هذا النوع ذكرتها كتب التاريخ^(١) وكلها تدل
على الضغطة والقسر اللذين عومل بهما عيسى بن موسى ليستجيب لرغبة
الخليفة، وسواء أكان قد استجاب عيسى أم أرغم، وسواء أتم هذا من جهته
أم أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهولم يخلعها. فإن الأمر على كل حال
انتهى على النحو الذي تريده القوة القاهرة ، ولكن هذه القوة لم تسكتف
بأن تنال مرامها ، بل ألزمت عيسى - كالعهد بالطغيان في كل زمان ومكان -
أن يواجه الناس في المسجد الجامع ، ومعه الوزير ، ليعان بنفسه
للجموع : إني قد سلبت ولاية العهد للمهدي ، وقدمته على نفسي . ولكن

(١) ابن الأثير ٥ : ٢١٤ - ٢١٥ ، الفخرى ١٤٩ - ١٥٠ .

الوزير لم يكتف بهذا ، فقال : ليس هكذا ايها الأمير ولكن قل : لحقه
وصدقه ، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت . ويعلم المهدي إذا : نسعّم قد
بعت نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد
المهدي أمير المؤمنين من بعده بعشرة آلاف ألف درهم ، بطيب نفس مني ،
ورغبت في تصييرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها . وأحق ، وأقوم عليها .
وأقوى على القيام بها مني ^(١) .

فكان بعض المجان من أهل الكوفة إذا مر بهم عيسى بن موسى يقولون
هذا الذي كان غداً فصار بعد غد ^(٢) .

ومن سوء حظ عيسى بن موسى أنه عانى مرتين الاضطهاد والتعسف
بسبب ولاية العهد ، وقد انتهينا من ذكر المرة الأولى ، أما المرة الثانية
فكانت في عهد المهدي ، الذي ورث عن أبيه حبه لبنيه ، وبغضه لهذا
الدخيل الذي كان يطمع في الخلافة دون الهادي والرشيدي . يقول
الجهشياري ^(٣) : ولما حال الحول على المهدي في الخلافة ، تقدم إلى أبي عبيد الله
بمناظرة عيسى بن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له
إن المنصور قدم المهدي عليك وعوّضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا
الامر عوّضك المهدي ما هو أنفع لك وأبقى عليك ، وإن أبيت استحل
منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمك طاعته ووجب عليك
القبول منه . ويضيف ابن الأثير ^(٤) أن عيسى رفض أن يذعن لهذه الرغبة
فأوعز المهدي إلى أمير الكوفة أن يعمل على الإضرار به ولكن هذا لم يجد

(١) الجهشياري ص ١٢٧ . (٢) المصدر السابق وابن الأثير .

(٣) الوزراء والكتاب ١٤٥ - ١٤٦

(٤) السكامل في التاريخ ٦ : ١٥

سبيلا إلى الإضرار بعيسى لأنه كان مقبلا بالرحبة بالقرب من الكوفة .
وكان لا يأتي الكوفة إلا قليلا . فاستقدمه المهدي إلى بغداد فامتنع
عن القدوم ، ولكن المهدي أرغمه على الحضور ، وأوعز إلى بعض رجاله
لينكوا به ويسيموه العذاب في بغداد . وإزاء هذا الغت لم يجد عيسى
بدأ من الاستسلام ، تخلف نفسه ، واستطاع المهدي بذلك أن يجعل ابنه
الهادي وليا للعهد .

في عهد الهادي : كان المهدي في سنة ست وستين ومائة قد أخذ البيعة
بولاية العهد لابنه هارون الرشيد ، ليكون خليفة بعد أخيه موسى الهادي ،
الذي كان قد عمده له بولاية العهد قبل ذلك بست سنوات .

ولما مات المهدي سنة ١٦٩ تولى ابنه الهادي الخلافة تنفيذاً لوصية أبيه .
وعلى الرغم من ضيق عهد الهادي ، فإنه اتسع لمحاولات جمة قام بها لينخلع
أخاه ، وبوصى بالخلافة لابنه جعفر ، ولدع الجهمياري وابن الأثير
يتكلمان : تنكر موسى لهارون الرشيد وعمل على خلع وتقليد ابنه جعفر ،
وهو طفل ، وبذل لهارون « الهني والمرى » من أعمال الرقة ، فعزم
هارون على القبول وقال : إذا نزلتُ على « الهني والمرى » وخلوتُ بابنة
عمي أم جعفر ، فما أريد شيئاً ؛ ولكن يحيى بن خالد منعه من تنفيذ ما عزم
عليه ، وقال له : إنما الخلافة ، ولعل ما تقدّر أنه يبقى لك لا يبقى ، ولم
يزل به حتى عدل . ووصل إلى الهادي امتناع الرشيد وموقف يحيى ،
فأوعز إلى رجاله بتحقيق شأن الرشيد ، وإثارة عيوبه ، وانتقاصه في مجلس
الجماعة ، كما بعث إلى يحيى يسأله : لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ ؟
فقال : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرني المهدي معه ، ثم أمرتني أنت

بالقيام بأمره ، فانهيت إلى أمرك ؛ فسكن الهادى إليه ووصله ، وبدأ يناظره فى خلع الرشيد ، فقال له يحيى : إن حملت الناس هلى نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وببيع الجعفر من بعده كان ذلك أوكديبيته . فقال له : صدقت ونصحت . ولكن الهادى لم تطب نفسه بعد ذلك لهذا رأى فأرسل إلى يحيى وحبيه ، ولكن يحيى سأل أن يخلو بالهادى ، فأجيب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هرون فهل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا . قال يحيى : فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر فإذا بسننا الله ذلك ، فعلى أن آخذ بيد هرون حتى يبايعه ، واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت الجعفر قبل بلوغه ، وحدث ما نعوذ منه ، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج عن ولد أهلك ، والله لو لم يعقد المهدي هرون ، لوجب أن تعقد أنت له ليكون فى بنى أهلك . فشكر له هذا القول وأطلقه (١) .

ولسكن الهادى عاود محاولاته ، وضيق على الرشيد ، فأشار عليه يحيى أن يخرج فى الصيد ، ففعل . ولم ينقذ الرشيد من محاولات الهادى إلا موت الأخير دون أن يصل إلى الهدف الذى سعى إليه (٢) .

ولاية عهد الرشيد : إذا جاز لنا أن نلتمس العذر للخلفاء السابقين فى سياستهم الخاصة بمشكلة ولاية العهد . فإنه لا يجوز لنا أن نلتمس العذر للرشيد ؛ ذلك لأن المشكلة كانت واضحة له ؛ كان يعرف من من أولاده

(١) الجهشياوى ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٣٢

(٢) أنظر المسعودى . مروج الذهب ٢ : ٢٦١

يجب أن يكون وليّ عهد ، وكان يدرك أن السياسة التي يتبعها في هذا الموضوع سياسة فاشلة ستؤدي إلى القطيعة وسفك الدماء .

ولكن الرشيد اهتدى إلى هذه النتائج عندما استعمل عقله وفكره في هذا الموضوع ، غير أنه كان كثيراً ما يطرح العقل والفكر ، ويستجيب لنداء القلب والعاطفة في بعض الأمور ، حتى الخطيرة التي تتعلق بمستقبل الدولة وسير الأمور فيها . ولنهالج المشكلة من أولها :

يروى الجهمشيارى ^(١) أن الرشيد كان يحب زوجته زبيدة ، ويحبها جداً شديداً ، وأنه لما عرض عليه الهادي أن يُقطعه إقطاعاً كبيراً على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، قبل ذلك العرض وقال : « إذا نزلتُ على الهنئ والمرئ ، وخلوت بآبنة عمي فما أريد شيئاً . . . لقد كانت زبيدة تعدل الخلافة عند الرشيد ، ألا يعدل رضاها ولاية العهد ؟ ويقول السيوطي ^(٢) : إن الرشيد بايع لمحمد لحرص أمه زبيدة على ذلك .

والأمين ابن زبيدة ، فمن الطبيعي أن تحبه وأن ترجو له المجد والخير ، ولكن من الحق على أن أفرر أنتى - على الرغم من محاولاتي - لم أجد فيما قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشيد تحضه على إيثار ابنها ، وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ، ولننظر إلى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز : روى المسعودي ^(٣) أن أم جعفر دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً ، حيث وليته العراق

(١) الوزراء والكتاب ص ١٧٠

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١١٣

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

وعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه . فقال لها
الرشيد . إني وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج
إلى الرجال من صاحب السلم .

لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطالع لمصلحة ابنها ،
وتبني له مستقبله ، وفيها إيجاز بأنها تفتن لكل ما يدور حول ابنها ، ولا تسمع
لأحد أن يتميز عليه .

ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير ^(١) أن سبب البيعة
للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء إلى الفضل بن يحيى بن خالد
فسأله في ذلك ، وقال له : إنه ولدك وخلافته لك ؛ فوعده بذلك وسعى فيها
حتى بايع الناس له بولاية العهد .

والذى أفهمه من هذه الرواية أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة .
وأنه كان باسمها يتكلم ، ثم كان هذا يتفق ورأى بنى هاشم الذين يفضلون
محمد ابن زبيدة على المأمون بن مراحل . وقد استطاع عيسى بحديثه إلى
الفضل أن يأتى البيوت من أبوابها ؛ فقد كان للبرامكة في ذلك الحين الحول
والطول ، ثم كان البرامكة يحرضون على إرضاء زبيدة ، لتميل إلى جانبهم
بدلاً من انحيازها إلى جانب الفضل بن الربيع ، الذى كان بها يقوى
وعليها يعتمد .

وانضم بذلك البرامكة إلى المعسكر الذى يعمل لصالح محمد الأمين ،
وأرسلوا الوفود للرشيد يحثونه على البيعة له ، فخضع الرشيد لكل هذه
الرغبات ، وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين .

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠

ويورد الأصفهاني قصة تبين صورة من الصور التي انبعت في التأثير على
الرشيد ، كما تبين إدراك الرشيد لعقلية الأمين والمؤمن . قال الأصفهاني (١) :
وجه الفضل بن يحيى وفداً من خراسان إلى الرشيد يحضونه على إعلان
البيعة لابنه محمد ، ويبدون استبشارهم واستجابتهم لما أذيع من عزم الرشيد
على هذا الأمر ، وقد وقف شاعرهم محمد بن ذؤيب العماني ينشد
أرجوزة طويلة منها :

لما أنا خير مشهر
أغر لا يخفى على من يبصر
جاء به الكوفي والمبصر
والراكب المنجد والمغور
قلت لأصحابي ووجهي مسفر :
فاز بها محمد فأقصروا
وقلّد الأمر الأغر الأزهر
فابتهج الناس به واستبشروا
وهللوا لربهم وكبروا
شكراً ومن حقهم أن يشكروا
فانظر لنا ونخل من لا ينظر
واجسر كما كان أبوك يجسر

(١) الأغاني ١٧ : ٧٨ - ٨٠

لا خير في مُجْمَعٍ لا يظهر
ولا كتاب بيعة لا يُنشر
وليت شعري والحديث يؤثر
أترقد الليل ونحن نسهر
خوفا على أمورنا ونضجر؟
فأحكم الأمر وأنت تقدر
فشل هذا الأمر لا يؤخر

فلما فرغ من الإنشاد قال له الرشيد : أبشر يا عماني بولاية محمد المهدي .
فقال : أي والله يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدية بالغيث ، والمرأة
الأنور بالولد ، والمريض المدنف بالبرء . قال الرشيد : ولم ذاك ؟ قال :
لأنه نسيج وحده ، وحامي مجده ومؤري زنده ، قال : فمالك في عهد الله ؟
قال مرعي ولا كالسعدان . فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من أعرابي ،
ما أعرفه بمواضع الرغبة ، وأسرعه إلى أهل البذل ، وأبعده من أهل الحزم
والعزم ، والذين لا يستمنح ما لديهم بالشاء ، أما والله إنى لأعرف في عهد الله
حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي ، ولو شاء أن أنسبه
إلى الرابعة لنسبته .

ثم إن الرشيد بعد أن عقد البيعة للأمين لم يستشعر الراحة ، ولم تطب
نفسه لهذا التصرف ، وبالتالي أدرك البرامكة سوء المنفعة في هذا الوضع
الجامئ ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون مع
أن الأول أحدث سنا وأقل كفاءة ، وكان المأمون في حجر جعفر فأشار

هذا على الرشيد بأن يبايع له بعد محمد (١).

ويسوق لنا المسعودي عن الأصمعي رواية تدل على أن نفس الرشيد لم تهدأ للظلم الذي ارتكبه في حق الدولة ، وحق ابنه المأمون . قال الأصمعي : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً : فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، وهو يبكي ، ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لانكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوى خطا لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريدُ أمراً عظيماً . ثم قال لمروان الخادم : على يحيى . فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إني قد عُنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصديره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ؛ وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصليل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمداً بالامر لم آمن تخايطة على الرعية ؛ فأشر على في هذا الأمر برأيك ، مشورة يعم فضلها ونفعها فإنك بحمد الله مبارك الرأي ، لطيف النظر ؛ فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يُستلَف في خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد

(١) الجهنيارى ص ٢١١ .

أنه يريد الخاوة ، فأمرني بالتسحي فقممت وقعدت ناحية ، وكنت أسمع كلامهما ، فما زال في مناجاة ومناظرة طويلة ، حتى قضى الليل ، وافترقا على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) .

وعلى هذا بايع الرشيد سنة ١٨٢ لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان (٢) .

ويبدو أن التوفيق قد أخطأ الرشيد فيما يختص بولاية العهد ، ويبدو كذلك أن محمد بن ذؤيب العماني أحس أن في أراجيزه فعل السحر على الرشيد ، وأنه يستطيع بها أن يعين ولاية العهد ، ولذلك نجده يجيء مجلس الرشيد وينشده أرجوزة منها :

قل للإمام المقتدى بأمه (٣)

ما قاسم دون مدى ابن أمه

وقد رضيناك فقم وسمه

وما ان يسمع الرشيد ذلك القول ، حتى يهتز ويتسم ويقول : ويحك يا ابن ذؤيب ، أمارضيت أن أوليه العهد وأنا جالس فأردت أن أقوم على رجلي ؟ فقال له العماني : ما أردت يا أمير المؤمنين قيامك على رجلك ، إنما أردت قيام العزم . قال الرشيد : فإننا قد وليناك العهد ، وأمر بالقاسم أن يحضر ، فلما حضر أودأ إليه الرشيد فجلس مع أخويه وقال له : يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ ، فقد سألنا أن نوليكَ العهد وقد فعلنا . فقال : حكك يا أمير المؤمنين (٤) .

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٢ - ٢٧٣

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٣

(٣) أمه : رأيه أو محمده

(٤) الأغاني ١٧ : ٨٠

قال المسعودى ^(١) : « فيايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه ؛ إن شاء أن يقره أقره ، وإن شاء أن يخلعه خلعه » .

وفي هذه العبارة التي أضافها الرشيد في بيعة القاسم ما يدل على أن الأمر كان مضطرباً عليه ، وأنه لم يكن يصدر في أحكامه عن عقيدة وإيمان ، وما كان للرشيد أن يتصرف بمثل هذه الروح في هذه الأمور الخطيرة . وقد سبق لنا أن قررنا أن الرشيد كان يدرك أن السياسة التي يتبعها في هذا الموضوع سياسة فاشلة ، ويعرف أنها ستؤدي إلى القطيعة وسفك الدماء ، ولذا استمع الآن إلى الكسائي يحدثنا عن إحساس الرشيد في هذا الأمر ، قال الكسائي : جلست عند الرشيد مرة ، فلما وثبت للقيام قال : اقعد . فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق إلا خاصته ، فقال لي : يا علي ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ فقلت : ما أشرفني إليهما . يا أمير المؤمنين ، وأسرفني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما . فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبل ككوكبي أفق يزنيهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما علي أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه ، فصير محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره . ثم أمرني أن أستقرئهما وأسالهما ، ففعلت ، ففأجابتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه ، والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لي : يا علي ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، كما قال الشاعر :

أرى قرى مجد وفرعى خلافة يزنيهما عرق كريم ومحمد

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت
في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغرٌ ، نافذ الأمر ، واسع
العلم ، عظيم الحلم ، يحكم بحكمه ، ويستضيئ بنوره ، وينطقان بلسانه ،
ويتقلبان في سعادته ، فامتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه
وبقاءهما ، فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة
المباركة ، أذرب ألسناً ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على نأدية
ما حفظ منهما . فضمهما الرشيد إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى
رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج . فلما خرجا أقبل
على فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ
الكتاب أجله ، قد تشتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم
لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ،
ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى ١١ (١)

وكان الرشيد بهذا كأنما يقرأ المستقبل ، ومن أجل ذلك بذل وبذل
البرامكة معه أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاية عهده بما وعدوا ، وأن يبروا
بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين . فهو ولي العهد الأول
وفي يده مفتاح الفتنة إن غدرَ ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين
لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك في رده على زبيدة حينما قالت له :
أعريت محمداً من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه ؛ فأجابها :
إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك (٢) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧١

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمى المسلمين عن فتنة عاصفة ، أن سار إلى مسكة حاجا سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد . وهناك كتب كتابا على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون ، وكتب كتابا على المأمون وأشهدهم فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين في السكبة . وجدد العهد عليهما فيها (١) وقد أراد جعفر البرمكي أن يؤكد على الأمين أن يكون وفيا لأخيه بارأ بعده له ، فطالبه أن يضيف في قسمه قوله : خذني الله إن خذلته فقال ذلك ثلاث مرات . (٢)

وينتهى بهذا دور الرشيد في هذه المأساة ويبدأ دور الأمين . ولسنا في حاجة إلى البحث والتنقيب عما كان يضمرة من الوفاء أو النكث ؛ فإن الأمين يكفيننا عبء محاولة الغور في نفسه لنستشف ما كان يخطر بها ، لأنه هو عبر عن خطرات قلبه ، عقب القسم الذي أدّاه في البيت الحرام ؛ حكى الفضل بن الربيع أن محمداً قال له عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس ، هو ما أجد من نفسي أن أمرى لا يتم . فقال له : ولم ذاك أعز الله الأمير ؟ قال : لأنني كنت أحلف وأنا أنوى الغدر . قال له الفضل : سبحان الله ! أفي هذا الموضع ؟ فقال الأمين هو ما قلت لك . (٣)

وما إن توفي الرشيد وتسلم الأمين الخلافة حتى جد ليوفى لنفسه ما أحب ، وليحقق ما كان أضمر . تخلع المأمون والقاسم ، وبايع ابنه موسى بالعهد بعده ، وأوفد وزيره الفضل بن الربيع أحداً للحجبة وسأله التلطف

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٧ ، ابن خلدون ٣ : ٢٢٢

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢

في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علمقهما في بيت الله الحرام بالبيعة .
ففعل الحاجب ذلك . وسرق الكتابين ، ورجع بهما إلى الفضل ، فدفعهما
إلى محمد فزقهما (١)

لقد فتح الأمين بذلك باب العاصفة التي هبت فأتت عليه ، وعلى ملوكه ،
وعلى أولئك الذين زينوا له النكث بالعهد ، وعدم الوفاء بالوعد . والنا
عودة فيما بعد إلى تفاصيل هذا الغدر ، وأثر الفضل بن الربيع فيه عند حديثنا
عن هذا الوزير في الفضل الثالث .

والآن يجدر بنا أن نقرر أن المأمون كان أول خليفة عباسي أفاد من
أحداث التاريخ ، ونظر للخلافة لا على أنها ملك خاص له يتوارثه أبناؤه
وبنتقل في ذراريه ، بل على أنها مصلحة عليا يجب أن يلاحظ فيها خير
الناس وإسعادهم . ومن أجل هذا عين شخصاً واحداً ليكون ولي عهده ،
ولاحظ الكفاءة والمقدرة فيه ، فتجاوز ابنه وعين أخاه المعتصم . واقتدى
المعتصم بالمأمون فعهد بولاية العهد لشخص واحد هو ابنه الوائق
ولا يؤخذ عليه أنه عين ابنه ، لأن الوائق في الحقيقة كان جديراً باستناد
هذا المنصب إليه ، وكان الوائق في درجة رفيعة من خوف الله وخشيته
ولذلك لم يعين ولياً لعهد ، وقال عندما سئل في ذلك : لا أريد أن أتحمل
وزرها حياً وميتاً .

وقبل أن نختم هذا البحث عن ولاية العهد يجدر بنا أن نتحدث عن
موضوع وثيق الصلة بها ، وقد عالجتُ هذا الموضوع في كتابي « كيف
تكتب بحثاً أو رسالة (٢) » ، بمناسبة عرضتُ هناك ، ولكن هنا المكان

(١) المرجع السابق ص ٢٩٢

(٢) ص ١٠ - ١٢

الطبيعي للبحث ، ولذلك نوجزه فيما يلي تاركين التفاصيل ليرجع إليها من شاء في الكتاب سالف الذكر .

والموضوع هو : هل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصدر خطر على الدولة الإسلامية ، وسبباً من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين .
لقد كتب المؤرخون كثيراً في هذا الموضوع ، واتفقوا إلى نتيجة واحدة ؛ هي أن هذا النظام كان من دواعي الاضطراب والضعف في هاتين الدولتين ، ومن أهم العوامل التي أدت إلى سقوطهما ؛ ولست أرى هنا الرأي وأعتقد أن هذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولي العهد كان - كما ذكرنا في أول بحثنا هنا عن ولاية العهد - مثار متاعب للخلفاء لا للدولة الإسلامية ، إذ كان هذا التغيير يستلزم اضطهاد شخص ولي العهد الذي كان يودى بنفسه لو رفض الإذعان كما فعل عبد الملك بن مروان بهمر وبن سعيد بن العاص ، أو يطأطأ للعاصفة ويستجيب للقوة كما استجاب عيسى بن موسى .

أما الحرب التي أثارها عبد الله بن علي وتلك التي أثارها المأمون فكان الدافع عليها إحساس هذين بالقوة ؛ فمع الأول جيش كبير ، ومع الثاني خراسان ؛ زعماءها وجنودها ؛ ولولا هذه القوة لثم إبعادهما دون كبير عناء ؛ وظلت المسألة محصورة في نطاق القصور دون أن تصل إلى ميادين القتال ؛ وقد كان الفضل بن سهل يدرك هذا تماماً ولذلك تجده يشير على المأمون أن يسافر مع أبيه في رحلة خراسان ، وكان الرشيد قلده هذه البلاد وما إليها إلى همدان ، ولكن الرشيد عزم على تخليفه ببغداد . فقال الفضل للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير

مأمون إن يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلدك (١)
فهذه الحروب لم يكن سببها تولية العهد لأكثر من واحد ، ولكن
كان سببها القوة التي استشعرها المأمون ليدافع عن حقه ، واستشعرها
عبد الله بن علي فطالب بالخلافة ، مع أنه لم تكن لديه وثيقة بولاية العهد .
وقد تدهورت الدولة الفاطمية في مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ،
أي منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن في نظام هذه الدولة جمل ولاية العهد
لأكثر من واحد .

هـ - العهد العباسي الزاهر :

الذي يدرس هذا العهد لا يستطيع أن يتخطاه دون أن يتحدث عن
الإصلاحات الشاملة التي تمت خلاله ، والحقيقة أن الهيكل التاريخي للعصر
العباسي الأول ، لا يمكن أن يتم دون أن توضح - ولو بإيجاز - قواعد
الإصلاح والعمران التي ظهرت فيه . والتي جعلت من بغداد عاصمة الدولة
الإسلامية مناراً يشع منه الضوء ، ومهداً تنبثق منه المعرفة ، وحصناً
تنساب منه جنود الحق فتلقى الرعب في قلوب المعتدين . لقد كانت بغداد
تتحدث فتصيح الدنيا ، وتعزم فتصبح الآمال حقائق ، فلنتحدث الآن عن
بغداد ، والحديث عنها ذو شجون .

١ - بناء بغداد : أعلنت الخلافة العباسية في مدينة الكوفة كما سبق
القول ، ولكن العباسيين كانوا يعرفون أن الكوفة وسوادها شيعة علي[ؑ]
وولده ، (٢) وأنه ليس من الخير للعباسيين أن يتخذوا عاصمتهم بين قوم

(١) الجهمباري ص ٢٦٦

(٢) راجع خطاب محمد بن علي بن عبد الله لدعائه حين أراد توجيههم إلى خراسان .

وقد سبق إirاده ص ٧ .

لا يدينون لهم بالولاء ولا يمكنون لهم المحبة والاخلاص ، ولذلك سرعان ما تركوا الكوفة إلى الحيرة ، غير أن انتقالهم إلى الحيرة لم يقصد به أن يتخذوها عاصمة دائمة ، وإنما كان ليجدوا فيها بعض الاستقرار ريثما يفكرون في مكان أكثر صلاحية وأحسن مقاما ، وفي الحيرة استقر رأيهم على أن يتخذوا الأنبار عاصمة للملكهم ، وهي تقع على بعد عشرة فراسخ من المكان الذي أنشئت فيه بغداد فيما بعد ، وكان قد أسسها أحد ملوك الفرس ، فجدها السفاح ، وأسماها الهاشمية ، وانتقل إليها ، ونقل لها دواوينه ، وظل بها إلى أن مات .

وفي الهاشمية ثار الراوندية في عهد المنصور عليه ، وكان ذلك اليوم الذي يطلق عليه « يوم الهاشمية » وقد سبق الحديث عنه . ومن أجل هذا أدرك المنصور أن بقاءه في مدينة كهذه غير مأمون العاقبة ، وتشاءم منها إذ كان على وشك أن يقتل فيها . ولذلك قرر أن يشيّد مدينة جديدة تحقق له الحماية ، وتصلح أن تكون عاصمة هذا الملك الكبير . ونشأت بذلك فكرة مدينة بغداد عروس الشرق .

وكان في ذهن المنصور ورجاله اختيار مكان ممتاز تقوم فوقه العاصمة الجديدة ؛ مكان طيب الهواء ، حسن الجو ، تحصنه الطبيعة ضد غارات المعتدين ، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع الإمبراطورية الإسلامية ، وقد تحقق في بغداد كل أو جل ما يطلبه المنصور ؛ فهي على نهر دجلة ، وعلى صفحته تأتينا الميرة والطرائف من الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر وريبعة ، ثم هي في أقرب نقطة بين دجلة والفرات . فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضاً على الفرات والقرية

منه ، وهذا المكان بين أنهار . فلا يستطيع أن يصل إليه العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وأزيلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، والمكان وسط بين بلاد العرب والعجم ^(١)

وقد تحقق المنصور بنفسه من توافر هذه المزايا في المكان الذي تقرر أن تقوم فيه عاصمة مملكته ، وشرع في إعداد الهدية ، ثم في التنفيذ ، يقول الخطيب البغدادي ^(٢) « إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء ، والعلم بالذرع والمساحة ؛ وقسمة الأرضين ، فشّل لهم صفتها التي في نفسه ، وطلب منهم أن يتبعوا ذلك في بناء المدينة » ويكمل الطبري ذلك فيقول ^(٣) : « إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن ينظر إليها عياناً ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك المخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط ، وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل ، وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ولبعد إلى الخطيب البغدادي ^(٤) الذي يقول : « إن المنصور كتب إلى كل بلدة يأمر بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً في أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ، وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على الرسم ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، ووضع المنصور بيده أول آجرة في بنائها

(١) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت

(٢) تاريخ بغداد ٦٦ : ١ — ٦٧

(٣) ٢٤١ : ٩

(٤) تاريخ بغداد ١ : ص ٦٧

وقال : باسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال ابنوا على بركة الله (١) .

وكانت المدينة مدوّرة ومن أجل ذلك سميت « المدينة المدورة » وفي وسط الدائرة قصر الخليفة المسمى « قصر الذهب » وجامع المنصور ، ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس وأخرى بناها للشرطة . وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء ، ورجال الدولة ، ودواوين الحكومة ، ثم دور الأهالي تتخللها الأسواق ، وكان هدف المنصور من اختيار هذا الرسم ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين في درجته ، وأن يكون الخليفة في مكان حصين يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء ، وكان للمدينة أربعة شوارع رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيرة تصل بينها .

وأقيم للمدينة في أول الأمر سوران قطر دائرة السور الداخلي مائتا ذراع وألف ذراع وارتفاعه خمس وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من أسفله عشرون ذراعاً ، أما السور الخارجي فعرضه من أسفله خمسون ذراعاً ، ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وارتفاعه ثلاثون ذراعاً (٢) . وعرض ما بين السورين ستون ذراعاً ومائة ذراع ، وفي كل سور أربعة أبواب ، تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة سمي باسمها ، وهي باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وعلى كل باب قبة ذاهبة في السماء ، وعلى رأس كل قبة تمثال ، وبين كل قبتين

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٨ - ٢٤٠

(٢) ابن الأثير ٦ : ٢٠٨

ثمان وعشرون برجاً ، ثم إن المنصور أقام سوراً ثالثاً داخلياً على النسق السالف ، زيادة في الأحكام (١) .

وكان العمل في بناء بغداد قد توقف قليلاً في بادئ الأمر ، عندما ظهرت ثورة العلويين في مكة ثم في البصرة ، فلما تمكن المنصور من قمع هاتين الثورتين استأنف العمل ، وقد تم بناء بغداد سنة ١٤٦ هـ ، فانتقل لها الخليفة ونقل لها جنده وخزائنه ودواوينه ، وظل العمل يسير في بناء الأسوار وإعداد الخندق حتى تم ذلك سنة ١٤٩ هـ (٢)

وبلغت تكاليف نفقتها ٨٣٣,٠٠٠ درهم (٣) واشتغل فيها عدد عظيم من النحلة والمهندسين والفضلاء ، ومن أبرز من عمل فيها الحاج بن أرطاة الذي أسهم في تخطيط المدينة والإمام أبو حنيفة وكان يقوم بعدد الأجر واللبن ، وابتكر للعد طريقة حديثة هي أن يهدّه بالقصب اختصاراً (٤) .

ولما تمت عمارة بغداد حفرت قناة للملاحة تأخذ مائها من الفرات وتشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ، ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهريّة بآسيا الصغرى وسورية .

وحدث أن زار رسول ملك الروم الخليفة أبا جعفر المنصور ، فأمر هذا حاجبه الربيع فطاف به في المدينة ، فلما عاد قال له : كيف رأيت مدينتنا ؟ قال : رأيت بناء حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوق ،

(١) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ١١ — ١٢

(٢) الطبرى ٩ : ٢٤١

(٣) ابن الأثير ٥ : ٢١٣

(٤) الفخرى ص ١٣٩ — ١٤٠ ، أورد الخطيب البغدادي رقاً غير صحيح لتكاليف البناء

ولسكن الناشر صححه « انظر تاريخ بغداد ١ : ٦٩ » .

فلما عاد الرسول عنه ، أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ ، وقيل إنما أخرجهم لأن الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها وربما كان فيهم الجاسوس^(١) . ويقول الخطيب البغدادي عن بناء الكرخ^(٢) : إن المنصور وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة ، ومن هذه الأسواق سوق العطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق التجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (لبيع الأزهار) وسوق القصابين ، وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق قائلا: إنهم سفهاء ، وفي أيديهم الحديد القاطع . ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة زاخرة بالمدينة والعلم والفضل وتطلعت لها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ، واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة في السياسة والنشاط الاجتماعي والعلمي في الشرق الأوسط كله ؛ واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم مما أصابها من هزات ، وما حل بها من محن وخطوب^(٣) .

وكان مولد بغداد في ساعة سعيدة تدعو للتفاؤل وتبشر بالخير ، فقد ر لها - فوق كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة ، وأعظم مركز تجاري في مطلع العصور الوسطى - أن تصبح محط أنظار العالم كله ، في الثقافة والآداب ، ومقصد العباقرة والموهوبين يفدون لها من بقاع العالم الإسلامي الفسيح^(٤) .

(١) ابن الأثير ٥ : ٢١٣

(٢) تاريخ بغداد ١ : ٨٠

(٣) Richard Coke : The city of pease p. 33

(٤) Ibid p. p. 48—49

٢ — إصلاحات داخلية: يوشك عهدا السفاح والمنصور أن يكونا عهدا واحداً ، وُجِّهت فيه جل العناية إلى تثبيت الدولة ، وإرساء قواعدها ، والتخلص من كل قوة يخشى منها على كيان الدولة الناشئة ، ولذلك كان طابع هذين العهدين الحزم والشدّة والصرامة ، فلما جاء عهد المهدي كانت الدولة قد استقرت وأمنت على نفسها واتسعت مقدراتها المادية ، ومن أجل هذا اشتهر عهد المهدي بإصلاحات داخلية فيها شيء من الترفيه والتيسير ، وسنتحدث عنها هنا حديثاً موجزاً :

قال المسعودي ^(١) : كان المهدي محبباً إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده في الإعطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار سوى ما جباه في أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة الهندي خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ما بها ، ففرق المهدي عشرين خادماً لجباية الأموال ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل ، فتشغل أبو حارثة عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام ، فلما دخل عليه : قال : ما أخرجك ؟ قال : الشغل بتصحيح الأموال . قال المهدي : أنت أعرابي أحق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا إذا احتجنا إليها ؟ قال أبو حارثة : إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظر حتى توجه في استخراج الأموال وحملها . وقيل : إن المهدي فرق في عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف درهم . فعند ذلك قام شعبة بن عقّال على رأسه خطيباً فقال : وللمهدي أشباه ،

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٤٨ — ٢٤٩

فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ،
فأما القمر الزاهر فأشبهه منه حسنه وبهاء ، وأما الربيع الباكر فأشبهه منه طيبه
وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبهه منه عزمه ومضاه ، وأما البحر الزاخر
فأشبهه منه جوده وسخاه .

وكان سرف المهدي مقصوداً له ؛ حكى الجهشيارى ^(١) : أن المهدي
أراد أمراً فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ؛ فقال
المهدي : ويلك !! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف . ويلك يا يعقوب !
لولا الإسراف لم يعرف المقل من المكث .

ومن مآثر المهدي أنه رفع عن دافعي الضرائب المؤن والكسور ؛
فن جهة المؤن فقد جعل على بيت المال نفقات جباة الأموال ، وأما
الكسور فقصبتها : أن الناس حتى عهد المنصور كانوا يؤدون الخراج
من الدرهم الوافي وهو ثمانية دوانيق لا من الدرهم المستعمل بين الناس
وهو ستة دوانيق ، فلما ولي المهدي قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً
في ذلك ، فقليل له : إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة
١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم . فقال : عليّ أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً مهما نقصت
سيوت الأموال ^(٢) .

وليس هذا كل ما فعله المهدي مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا
بالدين واليسر وكانوا من قبل يُعذبون بصنوف من العذاب ، فلما تقلد المهدي

(١) الوزراء والكتاب ص ١٥٩ وانظر كذلك ابن الأثير ٦ : ٢٤

(٢) جميل نخله مدور : حضارة الإسلام في دار السلام ٦٤-٦٥ ، وانظر الماوردي : الأحكام

السلطانية ص ١٣٨ .

الخلافة تقدم إلى أبي عبيد الله وزيره ، أن يكتب إلى جميع العمال برفع
العذاب عن أهل الخراج^(١)

وقرب المهدي العلويين ، وأطلق المسجونين منهم ، ووقف اضطهادهم
الذي عانوه في عهد أبيه ، وكان السبب في ذلك أنه كان يصلي في بهو له
في ليلة مقمرة ، فقرأ في صلاته قوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم »^(٢) فلما أتم صلاته التفت إلى الربيع بن
يونس وقال : يا ربيع ، استدع لي موسى بن جعفر . وكان هذا محبوساً
عند الربيع ، فلما حضر موسى قال له المهدي : يا موسى إني قرأت هذه الآية
نخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج عليّ . قال : نعم ،
ووثق له . نفلاه^(٣) .

وبما زاد في إحسان المهدي للعلويين مكانة يعقوب بن داود منه ؛ فقد
كان هذا كبير الميل للعلويين ، وقد انتهز فرصة رضا المهدي عنه وتقريبه له
فأمن العلويين . وولى كثيراً من الزيدية أمور الخلافة في الشرق والغرب^(٤)
ولما حج المهدي سنة ستين ومائة وفي صحبته يعقوب بن داود أخذ هذا
منه أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وأحضره له فأحسن إليه المهدي ،
ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز ، وأحسنه فعل يعقوب
في ذلك^(٥) .

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) سورة محمد الآية ٢٢ :

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٨

(٤) الجهشيارى ص ١٥٨ .

(٥) الجهشيارى ص ١٥٦ .

وعما فعله المهدي أن أطلق المسجونين إلا من كان محبوساً بأمر القضاء ، كما أجرى الأرزاق على المجذومين وأهل السجون ، وكانوا من قبل يُتركون فريسة للجوع إلا أن يُموّتهم ذوهم ، وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ، ومسجد الرسول (ص) ، وكان المهدي أول خليفه عباسي جلس للنظر في المظالم ، وكان إذا جلس قال : أدخلوا علىّ القضاة حتى يتحتم على ردّ المظالم ولو بدافع الحياء منهم ، وقال مسور بن مساور : ظنني وكيل المهدي وغصبي ضيعة لي فمكتبت إلى المهدي أنظلم ، فوصلت الرقعة وعنده عمه العباس وأحد قضاته ، فاستدعاني المهدي وسألني عن حالي فذكرته ، فقال : أترضى بأحد هذين ؟ قلت : نعم ، فاستدعاني حتى التصقت بالفراش وحاكني ، فقال له القاضي : أطلقها له يا أمير المؤمنين ؛ قال : قد فعلت (١) .

٣ — ترف القصور في عهد الرشيد : سبق أن ذكرنا أن عهد السفاح والمنصور ، كان طابعهما العزلة والشدة بسبب العمل على تثبيت الدولة وقمع الفتن ، وفي أخريات عهد المنصور كانت الدولة تسير قدما نحو الترفيه والتيسير ، ثم جاء عهد الرشيد فكان خطوة أخرى لنقل الدولة إلى عهد طابعه اليسر والرخاء والترف . إنه تطور طبيعي فيما يبدو ، وكانت شخصية الرشيد ، والبيئة التي رُبّي فيها من أهم الأسباب التي جعلت الرشيد يستجيب لهذا التطور ويتفاعل معه إن صح هذا التعبير ، والمهم أن عهد الرشيد بلغ الذروة في الترف والنعيم ، وتوافرت له الدواعي التي جعلت منه عهداً ملحوظاً ، ذائع الصيت ، لا في العالم الإسلامي فحسب ، ولكن في

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ .

العالم المتتمدين كله ، أما دواعى الترف فى هذا العهد وعناصره فهو ما سنحاول أن نجليه باختصار فيما يلى :

يقول ابن خلدون ^(١) « إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها ، كثر رياسها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ، إلى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم ، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون فى ذلك ، ويفاخرون غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ، ولبس الأنيق ، وركوب الفاره ؛ وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفعهم فيه ، إلى أن يبلغوا من ذلك العاية التى للدولة أن تبلغها بحسب قوتها ، وعوائد من قبلها ، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة ، فإذا حصلت العاية انقضى السعى إليها ، وقلت المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلب الملك ، وآثر ذووه الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا . وذلك هو ما تم أو بعض ما تم فى عهد الرشيد وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذى نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسؤوليات الملك ، ومهدوا له سبل الترف وأسباب النعيم . ثم من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال لدى الرشيد ولدى رجاله ، وللمال سحر وإغراء ، روى ابن خلدون ^(٢) أن المحمول إلى بيت

(١) المقدمة ١١٧ — ١١٨ .

(٢) » ١٢٧ .

المال في أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار في كل سنة وذلك يعادل خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات غير الضريبة العينية التي تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها ، وإيراد كهذا في تلك الأيام كان إيراداً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، وما لك في خائفة كان يستلقي على ظهره ، وينظر إلى السحابة المارة ويقول : اذهبي إلى حيث شئت يأتني خراجك (١) .

وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة وانضارتها ، وهو يعتبر في أندروسة من عهود بني العباس ، وقد وصلت بغداد فيه إلى قمة مجدها ، ومنتهى تخرابها ، وامتدت الأبنية في الجانبين امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين ، وبلغ سكانها نحواً من مليون نسمة (٢) ويقول ابن طباطبا (٣) : كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ، جى الرشيد معظم الدنيا ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقههاء والقراء والقصاص والكتّاب والأدباء ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة .

ولم يكن الرشيد وحده هو الذى وصل إلى هذا الحد . بل إن رجال دولته وعظماؤها وكثيراً من ولاته وقواده كانوا في أوج عظمتهم ، وأنصر أيامهم ، وأكثرها بهجة وجلالا ، لقد كثرت في ذلك العهد القصور الشاهقة التي تموج بالرياش الفاخر ، والأثاث الثمين ، وتنعج بالجوارى والقيان وتزخر بالشعر والموسيقى والعناء . وقد قرأ القوم آيات القرآن الكريم

(١) صبح الأعشى ٣ : ٢٧٠

(٢) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ٣٤

(٣) الفخرى ١٧١ - ١٧٢

التي تصف الجنة ، فتعجلوا هذه الأوصاف في الدنيا ، فهنا قصر الخلد الذي شبه بجنة الخلد التي وعد بها المتقون (١) . وهناك قصر السلام الذي لوحظ في تسميته قوله تعالى « لهم دار السلام عند ربهم » (٢) . وأغلب قصور هذا العهد تجرى من تحتها الأنهار وتموج بحور عين كأمثال الأولئ المسكنون .

وحول قصر الخلد كانت الجنات الملتفة والحدائق المتسعة والأزهار المونقة ، من ورد وبهار ، ياسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان إلى غير ذلك مما اختلفت ألوانه ، وعبق أريجيه ، وتضوع الجو بطيبه ، وفي خلال ذلك القنوات والغدران والجداول ، ومن دونها دجلة تزهو بفلحكم وزوارقها . وقد أقبل الأمراء والسراة ، يشيدون حول الخلد قصورهم ، ويفتنون في هذه القصور ما مكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأموالهم الموفرة وأخيلتهم الخصبية ، وروح الترف التي كانت تسيطر عليهم . فها هو ذا يازاء الخلد ، وعلى الضفة المقابلة في ذلك المنحنى ، قصر أبي أيوب سليمان بن أبي جعفر المنصور ، الشاعر الأنيق الرقيق ، وعم الخليفة ، وها هو ذا إلى جنوبي الخلد ، قصر أم جعفر زوج الرشيد الأولى ، ثم ها هي ذي قصور البرامكة في رحبة الخلد تجاه باب خراسان مر إلى غير ذلك من القصور التي جمعت من الزينة ومظاهر الترف ما جعل من تلك الضاحية جنة الأرض .

وكانت مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيها ، تضاعف فتنها ، وتزيدها متاعا إلى متاع ، وكان يناوح هذه الضاحية القائمة على الشاطئ الغربي للنهر ضاحية الرصافة ، وضاحية الشماسية ، وكلتاها من أحياء السراة والمترفين ،

(١) أنظر سورة الأنعام الآية ١٢٨

(٢) سورة الفرقان الآية ١٦

وفي الشماسية كانت إقطاعات البرامكة ، وفيها بنوا طائفة من القصور الرفيعة ، وكان الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة القائمة في الشاطئ الشرقي ، فكان ذلك مما يزيد جمال منظر وروعة وفتنة . وكان يتألف من الضفتين في هذا الوضع مجموعة موزنة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر ، فجمعت بذلك بين الجمال المطبوع والجمال المصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التي اكنمت للعراق في هذه الفترة (١)

وقد وصف علي بن الجهم القصر الهاروني [له منسوب إلى هارون الرشيد] بقصيدة رائعة منها .

م تصغي إليها بأسرارها	وقبة ملك كأن النجوى
إذا ما تجلت لأبصارها	تخر الوفود لها سجدا
فليست تقصر عن ثارها	وفؤارة ثارها في السماء
إلى الأرض من صوب مدارها	ترد على المزن ما أنزلت
أضاء الحجاز سنا نورها	إذا أوقدت نارها بالعراق
كساها الرياض بأنوارها (٢)	لها شرفات كأن الربيع

ويقول Richard Coke (٣): وحظي هرون الرشيد بصيت عريض قل أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسلاطين ، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة ، التي ترجمت إلى معظم اللغات ، وانتشرت بذلك في جميع أقطار العالم ، وتسربت إلى أغلب البيوت والمخافل ، وعلى الرغم من بعض

(١) طه الحاجري : قصر الرشيد ٣١ - ٣٢

(٢) الأغاني ٩ - ١١٤

(٣) Baghdad : The City of Peace p.p. 61 - 64 abridged

نواحي الضعف في شخصية الرشيد ، هو بحق أحد عظماء الملوك في التاريخ ، وفي عهد الرشيد شمل الرخاء الامبراطورية الإسلامية على نحو لم يتوافق من قبل ، وكانت حكومة الرشيد مهيبة الجانب في الداخل والخارج ، وشاعت العدالة بين الناس ، واتصلت بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العالم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، ويمتاز هارون الرشيد بأنه بالإضافة إلى حماية رعيته وتأمينهم ، جلب لهم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب . وفي عهد هارون وصلت بغداد إلى قمة العظمة واتسعت اتساعاً عظيماً في كل اتجاه ، وتألفت الأبنية فيها ، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التي بنيت قبل عهد الرشيد ، حتى أصبحت تتماشى مع العهد الجديد ، فأصبحت سمعة بغداد ، وجمالها ، والثقافة فيها ، وألوان الملذات والسرور ، وصنوف الترف والرخاء أصبح كل ذلك مشهوراً في العالم كله ، وما استطاع الرّحالة أن يحدوا لبغداد في عهد الرشيد نظيراً .

والقصة التالية ترينا صورة من الترف والغنى التي كانت طابع الهدايا التي اعتاد العظماء والسراة أن يقدموها في المناسبات المختلفة ، قال المسعودي^(١) : كانت أم جعفر قد كتبت إلى أبي يوسف تستفتيه في مسألة فأفتاها بما عرف أنه يوافق هواها على حسب ما أوجبه الشريعة عنده وأداه اجتهاده إليه ، فسُرَّت أم جعفر من الإفتاء ، وبعثت إلى أبي يوسف بحق فضة فيه حقان في كل حق لون من الطيب ، كما بعثت له بجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنانير ، وشفعت ذلك بغلمان ، وتخوت من ثياب ، وحمار ، وبغل ؛ ويستمر المسعودي فيذكر أن الهدية وصلت أبا يوسف

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٥

وعنده بعض أصحابه ، فقال أحدهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ؛ فقال أبو يوسف تأولت الخبر
على ظاهره ؛ لقد كان ذلك حينما كانت هدايا الناس التمر واللبن ، أما الآن
فهدايا الناس العين والورق وأمثالها ، وذلك للمهدي إليه خاصة تبعاً لقوله
تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (١)

وكان اهتمام القوم بالمحافل والأندية اهتماماً ملحوظاً ، كما اهتموا بالصيد
والقنص وعنوا من أجل ذلك بتربية صنوف متعددة من السباع والطيور .
أما عن ملابسهم وطعامهم فعندنا من النصوص ما يوضح الترف البالغ
الذي وصل إليه القوم فيها : دخل أبو قابوس النصراني الحميري - وكان
منقطعاً إلى البرامكة - على جعفر بن يحيى في يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر
البرد ، فألقى إليه مطرف خز كان شراؤه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ،
فحضره عيد لهم ، فالتمس في ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت
له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا
المطرف . . فكتبت إليه :

رأيت مباهاة لنا في الكنائس	أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا
لباهيت أصحابي به في المجالس	فلو كان هذا المطرف الخز جبة
ومن طيلسان من جياذ الطيالس	فلا بد لي من جبة من جبابكم
ولا بأس لو أتبعتم ذاك بخاءس	ومن ثوب قوهي وثوب غلالة
كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس	إذا تمت الأثواب في العيد خمسة
ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس	لعمرك ما أفرطت فيما سألته

(١) سورة الحديد الآية ٢١

فأما قرأ جعفر بن يحيى هذه القصيدة وجه إليه من كل صنف ذكره
عشر قطع (١).

ذلك مثال واضح للملابس سراة الناس في هذا العهد ، وهو بطابق أيضاً
ما ذكره الاصفهاني (٢) من أن ابراهيم بن المهدي كان يلبس المطرف وجبة
من الخنز ، وأنه أهدي المطرف مرة إلى اسحق الموصلي عند ما لقنه هذا
لحناً من ألحانه ، وأن قيمة هذا المطرف كانت مائة ألف درهم فيما يذكرون
فاذا ذهبنا إلى الطعام ذكرت لنا المصادر ما يدل على الترف البالغ الذي
هو إلى السرف أقرب . حدث ابراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد
بالرقة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وُضعت البوارد
رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لم
صغّر طبّاخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه السنة
السمك . فقال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان . فقال مراقب
مطبخه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين ؛ فاستحلفه عن مبلغ
ثمن السمك ، فأخبره أنه أكثر من ألف درهم . قال ابراهيم بن المهدي
وكان شراء الجام مائتين وسبعين ديناراً (٣)

فانظر مدى هذا الترف في تلك العصور المبكرة ؛ وعاء على المائدة
ثمنه مائتان وسبعون ديناراً وأغلب الظن أن كل الأوعية على المائدة من
هذا الطراز ، ثم هناك الطعام الحار والطعام البارد ، والسنة السمك لون

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢١٠

(٢) الأغاني ٩ : ٥٩ - ٦٠

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٩ - ٢٨٠

من ألوان البوارد ، وقيمة هذا اللون في الوعاء ألف درهم ، ولو أن إبراهيم
ابن المهدي أكمل لنا وصف المائدة لنقل لنا صورة رائعة لطعامهم وشرابهم
وربما بدت لنا إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة .

فإذا تركنا هذه المائدة التي أعدت للخليفة ، وذهبنا إلى مائدة أخرى لم
تكن معدة ولا مقصودة بقدر ما كان الأنس والطرب هما المقصودان
ولم تكن مقدمة إلى خليفة ولا إلى أمير ، وإنما إلى رجل قد يكون من
الطبقة الثانية أو الثالثة ، إذا ذهبنا إلى هذه المائدة فماذا سنرى هناك ؟ ..
استمع إلى مخارق يحدثنا حديث هذه المائدة فيقول : جاءني أبو العتاهية
فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لي ، فمتى تنشط ؟ .. فقلت :
متى شئت .. فقال : أخاف أن تقطع بي . فقلت : والله لا فعلت وإن طلبني
الخليفة . فقال : يكون ذلك في غد . فقلت : أفعل .. فلما كان الغد باكرني
رسوله (رسول أبي العتاهية) بجفثته ، فأدخلني بيتا نظيفا ، فيه فرش
نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وبقل وملح وجدى مشوى ، فأكلنا
منه ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بجلاواء
فأصبنا منها وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفواكهة وريحان وألوان من الأنبذة
فقال : اختر ما يصلح لك منها فاخترت وشربت ، ثم أخذت أشرب ويشرب
معى ، وأغنى له وهو يسمع حتى صارت العتمة (١)

إن ترف هؤلاء القوم قد بلغ الغاية وأربى ، وإن دراسته دراسة
كاملة لتستدعي عملا مستقلا ، فلتتوقف الآن عنه لننتقل بالحديث إلى موضوع
آخر من جوانب الازدهار في هذا العصر الذهبي للخلافة العباسية .

(١) الأغانى ٣ : ١٧٣ - ١٧٤

٤ — النهضة الثقافية : سيمضى حديثنا عن النهضة الثقافية هنا في حيز ضيق على النسق الذى تقتضيه الدراسة فى هذا الكتاب ، أما الوصف الشامل للحياة التربوية عند المسلمين فقد خصصت له كتاباً قائماً بذاته هو « تاريخ التربية الإسلامية » وقد صدر عن دار الكشاف بيروت باللغتين العربية والإنجليزية فليرجع إليه من شاء^(١). وقد صور^(٢) Professor Nicholson النشاط العلمى فى العالم الإسلامى تصويراً دقيقاً يحسن أن نقبس منه السطور التالية : وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماس ظاهر وسط القارات الثلاثة [وهى عالم ذلك العصر] ثم يعودون إلى بلادهم ، كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهى ، فيجلس هؤلاء الباحثون ليربوا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وفيرا ، وخيرا عميا ، كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ، ثم يخرجون للناس كتباً هى بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهى مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون .

ومن الطبيعى أن يكون العصر العباسى الأول أنسب العصور لملاءمة للنهضة الثقافية ؛ . فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع العصر الأموى ، والثقافة تنتشر فى الأمة إذا

(١) دار الكشاف فروع فى عواصم البلاد العربية وفرعها فى القاهرة عنوانه ٧ - شارع عبد العزيز .

A Literary History of the Arabs P. 281.(٢)

هدأت ، واستقرت أمورها ، وانتظم ميزانها الاقتصادي ، وجل هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية ، وتمسكن السفاح والمنصور من تثبيت الدولة ، والضرب على يد أعدائها ، وحينئذ أفسح رجل الحرب الطريق لرجال الإدارة والمال والقانون والآداب ، فظهر في ذلك العصر نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ، وقادة الفسك الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى وأبرز تراث أدبي حظيت به (١) . وكانت النهضة العلمية في ذلك العصر تتمثل في ثلاثة جوانب :

(١) حركة التصنيف

(٢) تنظيم العلوم الإسلامية واستقرارها

(٣) الترجمة من اللغات الأجنبية .

وهاك حديثا قصيرا عن كل جانب من هذه الجوانب :

١ — حركة التصنيف : مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغي أن يتميز كل منها عن الآخرين ؛ المرحلة الأولى وهي أدناها وأيسرها ؛ عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك في صحيفة مستقلة ، والمرحلة الثانية وهي أوسطها شرفا عبارة عن تدوين الأفكار المتشابهة أو أحاديث الرسول في ديوان واحد ، فهنا أحكام فقهية جمعت في ديوان ، أو مجموعة من الأحاديث ، أو أخبار تاريخية وهكذا ، أما المرحلة الثالثة وهي أشرفها فهي مرحلة التصنيف وهي أدق من التدوين ؛ لأنها ترتيب مادون وتنظيمه ووضع تحت فصول محدودة وأبواب مميزة . . قال الزبيدي (٢) « وصنفه تصنيفا جعله أصنافا ، وميز بعضها عن بعض ، قال الزمخشري ومنه تصنيف الكتب » (٣) .

(١) Richard Coke : The City of Peace p. 48

(٢) تاج العروس ٦ : ١٦٨

(٣) انظر تصدير الأستاذ يوسف العش لكتاب « تقييد العلم » للخليل البغدادي ص ١

وهذه المرحلة وصل لها المسلمون في العصر العباسي الأول ، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ، حتى سنة ١٤٣ هـ إذ شرع العلماء المسلمون في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، ومن أشهر المصنفين في هذا العصر مالك الذي ألف الموطأ ، وابن اسحاق الذي كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذي صنف الفقه والرأى ^(١) ويرجع إلى أبي جعفر المنصور الفضل في توجيه العلماء هذا الاتجاه ، وقد كان المنصور كما يقول السيوطي ^(٢) كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس ، تلقى العلم عن أبيه وعن عطاء بن ياسر ؛ ويروى أنه قابل الإمام مالكاً في موسم الحج ، وفتح في مسائل كثيرة من العلم ، ثم قال له : يا أبا عبد الله لم يبق في الناس أفتقه مني ومنك ، وإنني قد شغلتنى الخلافة ، فاجمع هذا العلم ودونه ، ووطئه للناس توطئة ، وتجنب فيه شذائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن العباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم ؛ فاعتذر مالك ، فلم يقبل منه ، فوضع كتابه الموطأ ، وأثر عن مالك قوله : والله لقد علمني المنصور التصنيف ^(٣) . ويقول حاجي خليفة ^(٤) : واختلف في أول من صنف فقيلاً الإمام عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريح البصري (١٥٥ هـ) وقيل أبو النصر سعيد بن أبي عروبة (١٥٦ هـ) . وقيل ربيع بن صبيح (١٦٠ هـ) ثم صنف

(١) الذهبي : دول الاسلام حوادث سنة ١٤٣ والسيوطي : تاريخ الخلفاء ١٠١-١٠٢

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠١

(٣) احمد زكي صفوت : العلوم والمعارف في العصر العباسي ٣-٤ .

(٤) كشف الظنون ١ : ٢٦ .

معمر بن راشد (١٥٣ هـ) وسفيان الثوري (١٦١ هـ) ومالك بن أنس (١٧٩ هـ) وعبد الله بن مبارك (١٨١ هـ)^(١) .

وسواء أكان هذا أول من صنف أم ذاك فإن من المتفق عليه أن هذا العصر هو عصر التصنيف ، وأن النضج العلمي الذي ينشأ عن طبيعة التطور بالإضافة إلى الاتصال بالنتاج الأجنبي الذي كان قد وصل إلى درجة كبيرة من دقة التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التي نقلت النتاج في البلاد الإسلامية من التدوين إلى التصنيف ، ولستنا في حاجة إلى القول أن حركة التصنيف لم تتوقف بعد ذلك ، بل سارت قدماً وأخذت طريقها نحو الدقة وحسن الترتيب .

٢ - تنظيم العلوم الإسلامية واستقرارها :

العلوم الإسلامية هي هذه الطائفة من العلوم التي نبعث من طبيعة الحياة الإسلامية ، وهي التي تتعلق بالدين ولغة القرآن ، ويطلق عليها بعض المصنفين « العلوم النقلية » ، إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن ينقل ويروي ، فالمفسر والمحدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقياه عن طائفة عن أخرى مرفوعة إلى الرسول (ص) ، وليس للغوي إلا أن ينقل اللغة عن العرب الخالص ، أو عن سمع منهم مباشرة أو بواسطة . ويتضح من هذا أن تسمية هذه العلوم بالعلوم النقلية في هذا العصر الذي ندرسه لم تعد تسمية دقيقة ، ذلك لأن علماء هذا العصر استباحوا أن يعتمدوا على العقل والمنطق في التدليل لما يذهبون إليه ، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذاك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل والمنطق ، وأصبح يفتي في مسألة فقهية لم يرد

(١) أنظر أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠ : ٤٠٠ ، ١٢ : ١١٥

فيها نص صريح باجتهاده وتفكيره ، وإن خالف في ذلك من سبقوه من المجتهدين ، وأصبح أحياناً يؤول النص للتوفيق بين طوائف النصوص التي يظهر فيها شيء من الاختلاف ، أو ليحكم بغير ما سجله النص اعتماداً على أن النص روعيت فيه حالة خاصة . ومن أجل ذلك آثرت أن أطلق على هذه العلوم « العلوم الإسلامية » . ومما يؤيد اتجاهي أن علم الكلام معدود ضمن هذه العلوم ، والمنكلمون — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (١) — أظهر عنصر عقلي في الحركة العلمية . وهم لا يميلون كثيراً إلى المنقول ، ولا يشقون بكل ما فيه ثقة المحدثين وغيرهم ، وكانت لهم مذاهب مقررّة في العدل والتوحيد وصفات الله وأفعال العباد ونحو ذلك ، تثبت لهم ببحثهم .

والعلوم الإسلامية تدين للعصر العباسي الأول بما وصلت إليه من دقة وتنظيم ، وهاك الحديث عن بعضها ، وعمّا نالته من تطور في هذه الفترة من التاريخ .

التفسير : يمكن القول أن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن ، وفصله عن علم الحديث . . . أما ميلاد علم تفسير القرآن ، فلأن ما سبق هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله ، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك ، تعي لغرض معين ، أو يختلف الناس في معناها ، أما في العصر الذي نتحدث عنه . فقد تطور التفسير تطوراً عظيماً ، وأصبح متسلسلاً شاملاً ، يحكي ذلك ابن النديم بقوله : « إن عمر بن بكير كان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن شيء بعد الشيء من القرآن ،

(١) ضحى الإسلام ٢ : ١٤٦ — ١٤٧

فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً ، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه ، فعلت ، فقال القراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملئ عليكم كتاباً في القرآن ؛ وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا ، خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يؤذن ، ويقرأ للناس في الصلاة ، فالتفت إليه القراء وقال له : إقرأ بفاتحة الكتاب ، فقرأ ففسرها القراء ، ثم استوفى الكتاب كله . يقرأ الرجل ويفسر القراء . قال أبو انعباس : لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه ^(١) ، وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات ، وكان فاتحة لمن جاء بعد ذلك ، ليسلكوا هذا الطريق ، حتى جاء الطبري الذي حشد في تفسيره كل المزايا التي سبقه بها أسلافه .

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر في هذه الفترة أيضاً ؛ فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث الرسول أو بأقوال التابعين ، فلما كان العصر العباسي الزاهر ، استقل تفسير القرآن ، وأصبح كثير من المفسرين يلجئون في تفسير القرآن إلى اجتهادهم هم ، مستعينين أحياناً بحديث للرسول ، أو بقول تابعي ، أو شعر عربي ، واهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا روايات أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدون . وقد مال المعتزلة بوجه خاص إلى استمهال العقل في التفسير ^(٢) كما فعل الجاحظ في قوله تعالى « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم » ، طلّعها كأنه رموس الشياطين ، ^(٣) إذ قال في تفسير ذلك :

(١) الفهرست ص ٦٦ طبعة أوربة .

(٢) اقرأ في هذا الموضوع « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن » لجولدزهر ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر .

(٣) الصافات الآيتان ٦٤ و ٦٥

إن الناس لم يروا شيطانا قط على صورة ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكراميتها . وأجرى على ألسنة الناس جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجوع بالأيحاش والتنفير ، وبالإضافة والتفريع إلى ما قد جمعه الله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم ^(١) . . . وهذا التشبيه أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رموس الشياطين نبات ينبت باليمن ^(٢) .

وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه فإن علماء الفقه قد اهتموا في تفسيرهم للقرآن باستنباط الأحكام منه ، واهتم اللغويون بغريب القرآن ، واستنبط النحويون من القرآن قواعد النحو ، وهكذا . . . فكان القرآن قاسما مشتركا، تلجأ إليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زادا يغذي النفس غذاء روحيا ، ومثونة تمد العلوم المختلفة بالخير الوفير . .

الفقه : من مفاخر هذا العصر أنه عاش فيه أئمة الفقه الأربعة وهم أبو حنيفة (١٥٠ هـ) ومالك (١٧٩ هـ) والشافعي (٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . . . وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقه في العالم الإسلامي ، ومذاهبهم هي أشهر وأوسع المذاهب انتشارا حتى العهد الحاضر .

وهناك طريقتان في التشريع تستحقان بعض العناية ، وهما : طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث ؛ فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم ما من النصوص الماثورة ، إذا لم يرد لهذا الحكم نص صريح ، رُسِمُوا بذلك لا تقانهم معرفة الحلال والحرام واستخراجهم المعاني من النصوص لبناء

(١) كتاب الحيوان ٤ : ٣٩ — ٤٠ وانظر كذلك الكامل للمبرد ٢ : ٦٩

(٢) أنظر تفسير الفخر الرازي ٧ : ١٤١

الأحكام ، ودقة نظرهم فيها ، وكثرة تفريغهم عليها . وأما طريقة أهل الحديث فهي التمسك بالحديث والعمل بالنص وحده ، فهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله إلى الرسول ويرفضون الأخذ بالرأى (١) .

وقد اتجه زعماء مدرسة العراق إلى الأخذ بالرأى لقلة الأحاديث المعتمدة عندهم ، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعاً ، مما جعلهم يتهيبون الحديث ، ويستسهلون الرأى الذى يعتمد على الفكر والمنطق ، مع نصوص القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما أهل المدينة موطن الرسول فقد كثرت عندهم الأحاديث لسكثرة من يحفظها هناك ، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأى والقياس ، وكانوا يرون فى الاعتماد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل ، ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل السائل إلى سواه من العلماء لعله يجد عند أحدهم حديثاً يسفى به ، وبينما كان أهل المدينة يتحرزون هكذا من استعمال الرأى كان أهل العراق لا يكتفون بالاجتهاد فى المسائل التى يُستفتون فيها ، بل كانوا يفترضون الفروض ليهشوا ويجهدوا ، كافتراضهم أن يطلق رجل امرأته نصف طليقه ، أو يحلف بالطلاق إن زوجته أجمل من القمر ، وهكذا مما يدل على سعة الهوة بين المدرستين ، غير أن هذه الهوة لم تستمر طويلاً ، إذ أن الرحلات لتلقى العلم قاربت بين وجهتى النظر . فأخذ المدينيون معهم الحديث إلى العراق ، كما أخذ العراقيون معهم فناوهم وآرامهم إلى المدينة ، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كـ محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، الذى رحل إلى المدينة وقرأ موطأ مالك ، وكالشافعى الذى رحل

(١) على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ٢٠٥ - ٢٠٦

إلى العراق وإلى المدينة فنال من هذه ، ومن تلك .
ومما يدل على شغف أبي حنيفة بالرأى والقياس ذلك الحوار الطريف
القصير ، الذى دار بينه وبين حلاق يهذب له شعره ؛ فقد طلب منه
أبو حنيفة أن يلتقط من ذقنه الشعرات البيض ، فاعتذر الحلاق ممالا
اعتذاره بأنه لو التقط الشعرات البيض لكثرت كثرة ربما طغت على الشعر
الأسود ؛ فقال له أبو حنيفة . إذا التقط الشعر الأسود ليكثر فيطحنى على
الشعرات البيض .

ومن أحسن كتب التشريع والفقه والإدارة التى كتبت فى ذلك العهد ،
كتاب الخراج الذى كتبه أبو يوسف تلميذانى حنيفة ، استجابة لرأى الرشيد
الذى طلب منه أن يضع له كتاباً عن نظم الحكومة وإدارة الدولة .
وقد جاء كتاباً جليل القدر عظيم الشأن .

النحو : حفل العصر العباسى الأول بأئمة النحو الذين شيدوا أركانه
وأقاموا دعائمه فى مدرستيه العظيمةتين : البصرة والكوفة ، فمن عاش فى هذا
العصر من أئمة النحاة البصريين عيسى بن عمر الشافعى (١٤٩ هـ) وأبو عمرو
ابن العلاء (١٥٤ هـ) والخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) والأخفش (١٧٧ هـ)
وسيبويه (١٨٠ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ومن الأئمة الكوفيين
أبو جعفر الرؤاسى^(١) والكسائى (١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٦ هـ كما ذكره
ابن خلكان ج ١ : ص ٢٣١ أو ١٨٩ هـ كما ذكره غيره) والفراء (٢٠٧ هـ) ،

(١) لم أجد تاريخ وفاته فى بغية الوعاة ولا غيره من المراجع التى تمكنت من الحصول عليها ،
وهو على كل حال أستاذ الكسائى (١٨٩ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ)

ولا نزاع أن من يطلع على هذه الأسماء يدرك أننا حتى الآن نعتمد في الدراسات النحوية على النتائج والأفكار التي ظهرت في هذا العصر الزاهر . وكانت مدرسة البصرة تختلف اختلافاً يبيناً عن مدرسة الكوفة ، فالأولى كانت تعنى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب ، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدّوه شاذاً ، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه ، وربما ضعفوا قائله أو خطّثوه ؛ وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر المقيني أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف في النحو بعد أبي الأسود الدؤلي (٦٧ هـ) وتوضح من هذه الترجمة قيمة النتائج العلمية الذي وضع في هذا العصر ، كما تتضح منها الأسس التي قامت عليها مدرسة البصرة ، قال ابن خلكان (١) ولعيسى بن عمر كتاب في النحو سماه الجامع ، يقال إن سيبويه أخذه وبسطه وحشي عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب إلى سيبويه ، وهو كتاب سيبويه المشهور ، والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد ، سأه الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال سيبويه : صنف نيلاً وسبعين مصنفاً في النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها ، وأنت عنده عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع وهو هذا الكتاب الذي اشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٩٣ - ٣٩٤

ذلك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

ويقال إن أبا الأسود الدؤلي لم يضع في النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط ، وأن عيسى بن عمر وضع كتاباً على الأكثر [أى تبييناً] لغالية ماورد عن العرب [وبوبه وهدبه ، وسمى ماشدّه عن الأكثر لغات ، وكان يظمن على العرب ، ويخطئ المشاهير منهم مثل النابغة وغيره .

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة ، بل إنها تفرعت عنها ، ومنشئها أبو جعفر الرؤاسي ، وقد احتضنها الخلفاء العباسيون وقربوا زعماءها . وكان التنافس على أشده في عهد الرشيد بين سيديويه والكسائي الذين انتهت إليهما رياسة المدرستين في ذلك الحين ، ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التي حدثت في مجلس الرشيد بين سيديويه والكسائي والتي زعم الكسائي فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ؛ فقال سيديويه : بل الصحيح فإذا هو هي ، فتشاجرا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربي خالص ، فاستدعى الأمينُ عربياً وسأله فقال كما قال سيديويه . فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائي ووعده بجائزة ، فقال العربي : إن لسانى لا يطاوعنى ، فقررروا أن شخصاً يقول رأى سيديويه كذا ورأى الكسائي كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربي : مع الكسائي . فقال العربي : هذا يمكن . وعقد المجلس وسئل العربي فأجاب : مع الكسائي وهو كلام العرب ، فعلم سيديويه أنهم ثمالثوا عليه . وتعصبوا للكسائي فخرج من بغداد (١)

وكانت الأسس التي راعتها مدرسة الكوفة أيسر كثيراً من تلك التي

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٥ - ٣٨٦

تمسكت بها مدرسة البصرة ؛ فقد كان الكوفيون يقبلون كل مناطق به عربي ،
ويتخذونه عل أنه اتجاه عربي يجوز تقليده ويرتبون عليه القواعد ؛ روى
لهم قول الشاعر

يا ليت عدة حول كلّه رجب

فأجازوا لذلك أن تؤكد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة ،
وقاسوا على ذلك جواز قولك : صمت شهراً كلّه وتهجدت ليلة كلّها ، أما
بصريون فقطعوا أولاً في نسبة الشطر ، وثانياً قالوا : إذا صحّت نسبة هذا
الشطر إلى عربي فهو شاذ لا يقاس عليه ^(١) . وهكذا نشأت مسائل خلافية
بين البصريين والكوفيين ، جمع كثير منها ابن الأباري في كتابه « الانصاف
في مسائل الخلاف » .

هذا وقد كانت الكوفة والبصرة مثلاً واضحاً للعصبية البادية التي حلت
حل العصبية القبلية التي كان يدين بها العرب من قبل .

التاريخ : كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة .
فقد كان الصحابة والتابعون يروون الأحاديث عن مولد الرسول ، ورضاعته
ونشأته ، وشبابه ، وبعثته ، وما عاناه في مكة ، وكيف استقبل في المدينة ،
وكذلك كانوا يروون الأحاديث المتعلقة بغزواته ، وباستعداداته لنشر
الإسلام في خارج جزيرة العرب ، ولما صنفت الأحاديث وضعت
لأحاديث المتعلقة بسيرة الرسول وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب
المغازي والسير » ، ولا يزال هذا الباب موجوداً في أشهر كتب الحديث
كالبخاري ومسلم مع بعض الاختلاف في تسميته . وكان هناك من الصحابة

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٥ - ٢٩٦

والنابعين من يهتم اهتماماً خاصاً بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت
فكرة استقلال علم السيرة عن الحديث . فلما جاء العهد الذهبي الذي تتحدث
عنه ، كانت هذه الفكرة قد قويت ووجدت من ينفذها تنفيذاً علمياً دقيقاً ،
وهو محمد بن اسحق (١٥٢ هـ تقريباً) وكتابه في السيرة أقدم كتاب نعرفه في
هذا الموضوع ، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام
(٢١٨ هـ) في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام .

وكان الرسول (ص) قد أعد العدة لنشر الإسلام في خارج جزيرة
العرب عن طريق الكتب والبعوث ، ولكن السياسة السلمية لنشر الإسلام لم
تنجح ، واعتسدى على بعض المبعوثين بالايذاء والقتل ، فأعاد الرسول العدة للثأر ،
ولتقويض القوى الغاشمة التي تقف حائلاً بين الدعوة وبين الشعوب المغلوبة
على أمرها على حدود جزيرة العرب ، وكان كُتّاب السيرة قد كتبوا عن
ذلك ضمن ما كتبوه عن سيرة الرسول ^(١) ولكن روح الرسول صلى الله
عليه وسلم صعدت للرفيق الأعلى قبل أن يتم هذا فأتمه بعده أبو بكر وعمر . .
ومن هنا اتجه كتاب السيرة إلى وصل سيرة الرسول بسيرة من جاء بعدهم
من الخلفاء لأنهم قاموا بإكمال ما بدأه ، وأصبح يطلق على هذا النتاج الجديد
كلمة التاريخ . ومن أشهر من صنفوا فيه في عصرنا هذا العلامة محمد بن عمر
الواقدي (٢٠٧ هـ تقريباً) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذي اعتمد عليه
الطبري كثيراً حتى حوادث سنة ١٧٩ هـ أما الكتاب نفسه فلم يصح وروده
لنا ، وللواقدي كتاب آخر يعرف بالمغازي وهو بين أيدينا ، وليس هذا
هو كل ما وصل لنا من علم الواقدي ، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص

(١) انظر بعث الرسول لأسامة بن زيد ليفتح أرض فلسطين (ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٥)

آخر من مؤرخي هذا العصر أيضاً وهو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ هـ)
الذي كانت شهرته « كاتب الواقدي » ، وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه
القيم « الطبقات الكبرى » وهو ثمانية أجزاء يتحدث في الجزء الأول والثاني
عن سيرة الرسول وفي الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة والتابعين ،
ومحمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذري (٢٧٩ هـ) .

٣ - الترجمة من اللغات الأجنبية :

بدأت الترجمة في هذا العصر منذ عهد الباكر واهتم بها الخلفاء لأول
مرة في تاريخ الإسلام ، ذكر السيوطي ^(١) : « أن المنصور أول خليفة
ترجمت له الكتب المشرقية والأعجمية باللغة العربية ككتاب كيلة ودمنة ،
واقليدس » ، ولكن حياة الرشيد والمأمون تمثل في الواقع العصر الذي
وصلت فيه الترجمة ذروتها في النشاط والذقة ^(٢) وكان بيت الحكمة - الذي أسسه
الرشيد ورعاه المأمون - مركز ذلك النشاط ، وقد ضم بيت الحكمة
كتباً وضعت في الأصل بلغات مختلفة ، ومن أهمها الكتب اليونانية
والفارسية والهندية والقبطية والآرامية ، ومن أجل هذا كان المترجمون
كثيرون ينقل بعضهم من اللغة اليونانية ، وينقل آخرون من الفارسية ،
وينقل فريق ثالث من الهندية وهكذا .

وقد وجهت العناية في بدء العهد ببيت الحكمة إلى الكتب الفارسية والهندية ،
ويرجع السبب في ذلك إلى أن يحيى بن خالد كان في هذه الأثناء يشرف
على شؤون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥ .

(٢) انظر ما كتبه عن المترجمين وعن دار الحكمة في كتابي « تاريخ التربية الإسلامية » .

ابن خالد فارسي الأصل ، والثقافة ، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألوانا من ثقافة الفرس . فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من المخطوطات الفارسية ، وعيّن لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبي سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبي ، ويقول ابن النديم^(١) عن ابن نوبخت : له نقول من الفارسي إلى العربي ، ومحوه في علمه على كتب الفرس ؛ وكان للفرس صلة بالهنود ، ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها . ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد يرسل في طلب بعض علماء الهنود الممتازين ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم إلى اللغة العربية ، وبواسطة هؤلاء العلماء الهنود الذين استدعاهم يحيى ، نقلت فنون من الثروة العلمية ، من الهندية إلى العربية^(٢) .

ثم جاءت الثروة الضخمة في أخريات عهد الرشيد ، وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليوناني الخالد . وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك .

ذكر ابن أصمعيه^(٣) أن الرشيد قد يوحنا بن ماسويه ترجمة المخطوطات القديمة ، مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين ملكها المسلمون ، ووضعها أميناً على الترجمة .

فهذه مجموعة من المخطوطات اليونانية جلبت من أنقرة وعمورية إلى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جلبت من قبرص ، يحدثنا عنها ابن نبطه

(١) الفهرست ص ٢٧٤ .

(٢) Khuda Bukhsh : Islamic Libraries; 19th Century L11, p. 128 .

(٣) عيون الأنباء ١٠ : ١٧٥

المصري فيقول (١) : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد . فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأي عنده ، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطراناً واحداً فإنه قال : الرأي أن تعجل بإفادها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علماءها ، فإرسالها إليه ، واغتيبها المأمون . وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية إلى خزانة الحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم (٢) فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه عن نفذ إلى بلاد الروم ، وأحضر المأمون أيضاً حنين بن إسحاق ، وكان تقي السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء واليونانيين إلى اللسان العربي ، وإصلاح ما ينقله غيره فامتلأ أمره .

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التي وردت إلى بيت الحكمة ،

(١) سرح العيون ص ١٦٦

(٣) المهرست ص ٢٤٣

وقد عين لها مشاهير العلماء لترجمتها وكان المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذي يترجمون منه ، بالإضافة إلى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية ، ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق وابنه اسحاق ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون ، وعمر بن الفريخان وغيرهم .

ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذين عنوا بتزويد اللغة العربية بهذا الزاد العقلي الرفيع ، بل إن من أفراد الشعب من أولى الترجمة عناية كبيرة ، وبذل من أجلها مالا كثيراً ، ومن هؤلاء بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون ينقلون لهم ، ويلازمون العمل في مسكناتهم ومن هؤلاء المترجمين حميد بن الحسن وثابت بن قرة (١) .

ويحذر بنا أن نرجع . قبل أن ندع هذا البحث إلى بعض المراجع الأجنبية ، لنرى مادونته حول هذا الموضوع ، ولنتقل اعترافاً أن المسلمين لم يكونوا مترجمين فقط ، وإنما كانوا مبتكرين ومبدعين في هذه المواد التي نقلوها من اللغات الأجنبية ، وأنهم فسروها ، وأضافوا عليها شروحا وتعليقات عظيمة القيمة ، جليلة القدر :

يقول Bolus في كتابه «^(٢) The Influence of Islam » : إن المسلمين أخذوا كثيراً من علوم البيزنطيين ، والأقباط ، والهنود والفرس ، ولكن من الحق أن تؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم زادوا عليها وحوروا فيها ، وصبغوها صبغة جديدة ، حتى أصبحت

(١) القفطي ٣٠ - ٣١ ، ابن أبي أصيبعة ١ : ١٨٧

(٢) See Chapter XI .

علومهم هم ؛ وسارع العرب حين تيسرت لهم هذه المواد إلى ترجمتها دون إضاعة وقت ، فترجموا إلى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية ، كما ترجموا الحساب بما في ذلك نظام الكسور العشرية ، أما الجبر فإذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهودهم في ترقيته والتطور به ، ونحن (يقصد الأوروبيين) مدينون للعرب بما وصلنا له في هذه العلوم الرياضية من نتائج ، أما طلاب مدارسنا فقد كانوا يعتمدون في دراستهم لمادة الجبر اعتماداً جوهرياً على كتاب عربي ترجم إلى اللاتينية لهذا الشأن . وقد ألف هذا الكتاب في عهد المأمون عقب التجارب التي قام بها محمد ابن موسى ، ولم يكن العرب مترجمين أو مهنيين لهذه العلوم فحسب . بل إنهم اخترعوا كثيراً وبخاصة في الفلك ، فاخترعوا الأسطرلاب لقياس الارتفاع واستطاعوا أن يتعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الأذنان ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدري الذي لم يعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفسائقة في كشف صنوف الأدوية . وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للإجلال والتقدير . ونجحوا بهذا في تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيميائية الجوهرية التي نقلت عنهم إلى أوروبا .

ويقول غوستاف لوبون^(١) : وقد وجد العرب في بلاد فارس وسورية حينما استولوا عليها ، خزان من العلوم اليونانية ، فأمرؤا بنقل ما في اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ، ثم أمرؤا بأن ينقل إليها من

(١) حضارة العرب ص ٤٦٠ من الترجمة العربية .

اللغة اليونانية ما لم يكن قد نقل إلى اللغة السريانية . فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قدما نحو الرقي ، ولم يكتشف العرب بما نقل إلى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها علوم اليونان . وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة متعلمي العرب ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع لم يكتفوا بحال الطالب ، ولم يلبثوا أن تحرروا ، بما عرف عنهم من النشاط ، حتى عاد الإغريق وهم ليسوا أساتذة للعرب .

ويقول Philip Hitti ^(١) إن العهد العباسي الأول ليزهو باليقظة الفكرية التي تمت فيه ، وقد كانت هذه اليقظة ذات أثر بعيد في الحركات الفكرية والثقافية في العالم ، وكانت تعتمد إلى حد بعيد على الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الفارسية والهندية واليونانية ، وكان المسلم العربي حاذقا ، ذكيا ، مشغوفا بالاطلاع ، راغبا في الاستفادة والتزود من هذا الزاد الفكري الرفيع ، ومن أجل هذا كانت استفادته شاملة ، وانتفاعه واضحا ، وسرعان ما سيطر على ثقافة هؤلاء الأقوام ، وأصبح يضع يده على أهم مؤلفات أرسطو الفلسفية ، وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة ، وأكثر ما كتبه جالينوس في الطب ، بالإضافة إلى النتاج الفارسي والهندي . وينبغي ألا نبالغ في فضل اليونان على المسلمين ، إذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلا عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة ، وبابل ، وفينيقية ، ثم عادت هذه المعارف إلى العالم الإسلامي وهي في ثوب يوناني ، وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم إلى أوربة مرة أخرى

(١) History of the Arabs p. p, 306 - 307.

من الشرق الاسلامى إبان العصور الوسطى (١) .

هـ — العلاقات الخارجية : توافرت للخلافة الاسلامية فى هذا العصر عناصر السيادة والقوة والسلطان ، وكانت كما يقول (٢) Richard Coke مهيبة الجانب فى الداخل والخارج ، وكانت الدول الأجنبية تخافها وتخطب ودها ، كما عُدَّ بعض خلفائها كالرشيد ، سيد عصره ، وواحد زمانه .

وكانت العلاقة طيبة بين خلفاء هذا العصر ومعاصريهم من ملوك الفرنجة ؛ بين المنصور وبيبين (Pepin) ، وبين المهدي وشارل مارتل (Charles Martel) ، وبين الرشيد وشارلمان (Charlemagne) وكثيراً ما تبادلوا الهدايا والسفراء ، وكان بين هدايا الخلفاء إلى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ، وفيل ، وساعة مائة دقاقة ، حسبها الفرنجة آلة سحرية أول مارأوها .

وكان الدافع لهذه العلاقة فى هذه الفترة عجبياً ، ويدل على تغلب الروح السياسية على الروح الدينية عند المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد كان خليفة بغداد يؤكد هذه الصداقة إلى أمير الأندلس المسلم ، ويهدده بملك الفرنجة ، كما كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه امبراطور الدولة البيزنطية المسيحية .

أما الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فقد كانت ميدانا لنشاط حربي محدود ، ولكنه يكاد يكون متصلاً ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين فى العهد الأموى ، إذ كان هدف الأمويين

(١) لتعرف على عناصر الثقافة الأوربية المستمدة من الثقافة العربية يرجع الى كتاب

The Legacy of Islam .

Baghdad: the City of Peace p. 62.

(٢)

الزحف والتوسع ، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال بلاد الفرس ، أما العباسيون فقد غيروا سياستهم على هذه الحدود ، وجعلوا نشاطهم الحربي عبارة عن إغارات الغرض منها إظهار القوة ، وتخريف العدو ، وكسب المال ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط بمائل ، وقبل أن نسير في وصف هذه الاغارات، يحمل بنا أن نسأل : لماذا لم يسر العباسيون على سياسة الأمويين في هذا الشأن ؟ وما الذي أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية ؟

يقول الدكتور حسن إبراهيم^(١) : إن ذلك يرجع إلى سببين هامين : أولهما : مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين . [وأى حركة الزحف تجاه القسطنطينية لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها . فإذا لم تكن هذه القاعدة مأمنة الجانب مؤيدة للجيش المهسكة فيها والمتحركة منها ، فإن النصر يكون بعيدا^(٢)] .

ثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يصارع أسطول الأمويين من قبل ، وفتح القسطنطينية لا يمكن أن يتم بدون أسطول .

وبين لي سبب ثالث لا يقل عندي خطراً عن هذين السببين ، وهو أن الامبراطورية الإسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً يستلزم جهداً

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٢ : ١٨٥

(٢) الذي بين القوسين زيادة للإيضاح أضيفت لما ذكره الدكتور حسن إبراهيم

كبيراً للسيطرة عليها ، وتأمين حدودها . ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد شمال افريقية تثير التمرد عليهم من حين إلى آخر ، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على مافي أيديهم ، والمحافظة على امبراطوريتهم ، بدل أن يوجهوا قوتهم إلى التوسع فتضعف شوكتهم في الداخل ، ويعرضهم ذلك إلى فقدان أجزاء أخرى من الامبراطورية .

واكتفى العباسيون إذا بالإغارات ليوهموا الأعداء أنهم أقوياء ، وأنهم دائماً على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم ، وقد اتخذت هذه الإغارات شكلاً منتظماً ، وكانت تسمى الصوائف والشواتي ، ويحدّثنا قدامة بن جعفر عنها حديثاً مفصلاً فيقول (١) : ومما يعرفه أهل الخبرة من الثعوريين . [سكان إقليم الثغور وهي المناطق المواجهة لبلاد الروم] أن تتمتع العزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار [مايو] ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دراهمهم ، وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية أيار وعشرة من حزيران [يونيو] فإهم يحدون الكلاً في بلد الروم ممكناً ، وكأن دراهمهم ترتفع ربيعاً ثانياً ثم ينفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً ، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز [يوليو] حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون إلى وقت قفو لهم ستين يوماً ، فأما الشواتي فإنهم جميعاً يقولون : إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه

(١) نبذة من كتاب الحراج ، وصنعة الكتابة مطبوعة مع كتاب المسالك والممالك لابن

خر داذبة انظر ص ٢٥٩

ما يكفيه على ظهره [لعدم الكلا حينئذ في بلاد الروم] وأن يكون ذلك في آخر شباط [فبراير] فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من أذار [مارس] . ومن هذا يتضح إن جل نشاطهم الحربي كان في الصيف ، وانهم كانوا يتحزون أن يقوموا بإغارات في الشتاء إذا لم تدع الضرورة لذلك . أما الصوائف فن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة ، وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا في خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء . وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣ هـ وقد قام بها سعيد بن عبد الله (١) ، ثم انتظمت بعد ذلك فتجد الطبري وابن الأثير يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة ، فيقولان : وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان ؛ فإذا لم يقيم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له فهو يقول في حوادث سنة ١٣٧ هـ : « ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباد » (٢) ويقول في حوادث سنة ١٣٩ هـ « وغزا الصائفة صالح بن علي والعباس بن محمد . . . ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابني عبد الله ابن الحسن » وهكذا كانت الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة نفسه أو ولي عهده ، وما يجب أن يذكر أن الصوائف التي تمت في عهد هرون الرشيد كانت من أقصى الصوائف وطأة على

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٨

(٢) مجوسى خرج بخراسان ليطالب بدم أبي مسلم وقد استطلاع الخليفة القضاء عليه بعد سبعين يوما من قيامه (انظر ابن الأثير ٥ : ١٨٠) .

البيزنطيين ، وأكثرها إذلالاً لهم ، وطالما تولاهما الخليفة بنفسه .
ولم يكتف الرشيد بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده ، ولكنه
اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين ،
خطاً دفاعياً وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لتقريباً بحكام الثغور ،
ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعي يمكن أن يصبح قاعدة للهجوم ،
أسس إقليماً مشابهاً لإقليم الأطراف البيزنطية على حدود البلاد الإسلامية
الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وكان هذا الإقليم جزءاً من أرض
قنسرين والجزيرة ، ففصله هارون الرشيد ، وعين ابنه المعتصم أميراً له ،
وجعل عاصمته إنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وإنطاكية غرباً إلى الساحل (١)
ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ،
لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ثم هي للتمييز بينها
وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهي الحصون
التي سميت بإقليم الثغور ، لمواجهة الثغرات أو المنافذ التي في أرض العدو ،
وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي ، ويسمى
بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطرة
وحصن منصور . والحدث ، والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب
الغربي حيث تقترب من ساحل خليج الإسكندرونة ، ومن أهم حصون هذا
القسم المصبصة وأذنة وطرسوس (٢) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ١٦ ، ٦ : ٢٢٧

(٢) Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate p. 128 .

والدكتور العدوي : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ٧١ — ٧٢ .

ومع أن نظام الصوائف والشواقي كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في هذه الفترة، كانت ظروف خاصة تجدد أحياناً ، فتجعل الصائفة أو الشائفة زحفاً عميقاً ومهركة حرية حامية أوسع مدى ، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذي كان طابع الصوائف والشواقي ، وقد سجل التاريخ والشعر العربي بعضاً من هذه المعارك التي تقدم أمثلة منها : كانت الصائفة التي شنها المهدي على البيزنطيين سنة ١٦٥ هـ. قوية جارفة بسبب النشاط العدائي الذي قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيل هذا الزحف ، وقد سار المهدي ابنه الرشيد على رأس هذه الصائفة في حوالى مائة ألف مقاتل ، وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد كتب لجيش المسلمين النصر في زحفه ، واستطاع الرشيد أن يصل بجيشه إلى خليج القسطنطينية ، فأوقع الرعب في قلب إيريني (Irene) أرملة ليو الرابع (Leu IV) وكانت وصية على ابنها فطلبت الصلح ، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام ، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق في طريق عودتهم ، وقتل من الروم في هذه الوقائع ٥٤,٠٠٠ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات (١)

وفي هذه العزوة يقول مروان بن أبي حفصة مخاطباً الرشيد :

أَطَفَتْ بِقُسْطَنْطِينِيَةِ الرُّومِ مَسْنَدًا

إِلَيْهَا الْقَنَا حَتَّى أَكْتَنَى الدَّلَّ سَوْرُهَا

وَمَا رَمَتْهَا حَتَّى أَتَنَكَ مَلُوكَهَا

بِجَزَيْتِهَا وَالْحَرْبُ تَغْلِي قَدُورُهَا

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٢

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك ،
فأرسل إليهم رسلا يدعوهم إلى الطاعة ، فدخل أكثرهم في طاعته ، ومنهم
ملك طبرستان ، وملك السند ، وملك فرغانة ، وملك سجستان ، وملك
الترك ، وملك الصين ، وملك الهند (١) .

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية في الدولة البيزنطية إلى أحداث
جسام ، وتصارعت فيها قوى ثلاث : قوة المملكة ، وقوة ابنها الأمير ، وقوة
ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين ، وانهزمت المملكة أولا ، واعتلى
الأمير العرش ، باسم قسطنطين السادس ، ولكن المرأة عادت وقبضت
على ابنها وسلمت عينيه واستولت على الحكم ، غير أن قوة الجيش ظلت
في طريقها إلى أن نجحت ، وأعلن نقفور - الذي قاد حركة الانقلاب - نفسه
إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ١٨٧ هـ .

كان الجيش البيزنطي يعتقد أن الضعف الذي ظهرت به الامبراطورية
البيزنطية أمام جيوش المسلمين ، راجع إلى أن الدولة تحكمها امرأة ، ولذلك
نجد نقفور يبعث إلى هرون الرشيد خليفة المسلمين بالرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب :

أما بعد ، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه ، ووضعت نفسها
موضع الرُّخ [الشاه والرخ من أدوات الشطرنج] ، وينبغي أن تعلم أني
أنا الشاه ، وأنت الرخ ، فأدِّ إلى ما كانت المرأة تؤدي إليك (٢) .

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزه الغضب ، حتى لم يستطع أحد من

(١) اليعقوبي ٢ : ٤٧٩ .

(٢) صبح الأعشى ١ : ١٩٢ .

جلسائه أن ينظر إليه ، ثم دعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :
من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، إلى تقفور كلب الروم :
أما بعد ، فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، والسلام
على من اتبع الهدى (١) .

وشخص الرشيد من يومه ومعه جيش هائل ، وعجزت كل القوى
البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل إلى هرقة ، وقد غم
في طريقه وأفنى ، كما شاءت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقة ،
وبدأ يقذف حصونها بحجارة ملتهبة حتى سقطت ؛ وقد سجل الشاعر العربي
هذه الصورة في قوله :

هوت هرقة لما أن رأت عجباً جواثما ترتقي بالنفط والنار
كأن نيراننا في جنب قلعهم مصبغات على أرسان قصار (٢)
وأدرك تقفور أن الملكة إيريني لم تكن سبب الهزائم التي حلت ببيزنطة ،
ولأنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذي يحاربون من
أجله ، فسأل الصلح على مال يؤديه كما كانت إيريني تفعل من قبل ، وقبل
هرون الرشيد بعد أن أدبه ، ولكن الرجل لم يستطع أن يبر بما وعد ،
فما أن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض تقفور العهد ، ظاناً أن شدة
البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقد كان هذا النكث شديد الوقع
على قادة المسلمين ، حتى إن أحداً منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتيل
بشاعر من أهل جنده يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف ، ويقال هو الحجاج
ابن يوسف التيمي ليقول في ذلك شعراً وينشده الرشيد ، فقال :

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٢

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غنم أذاك به الإله كبير
فعرف الرشيد بذلك خبر النكث ، وعاد من فوره ، وأثنى في بلاد
الروم ، وفتح هرقة ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله
ورجاله ، وكان مقدارها ٥٠.٠٠٠ دينار (١) .
هذه قصة هرقة ، فلننتقل بعدها إلى قصة تحاكيها مجداً وشرفاً ،
إلى قصة عمورية :

كان الامبراطور ميخائيل الثاني معاصراً للمأمون ، وقد منى كل منهما
بشائر عنيد أشعل نار الفتنة ، وأثار القلاقل في وجه سيده ؛ منى المأمون
ببابك الخرمي ، ومنى ميخائيل بتوماس الصقلي ؛ وبابك هو زعيم الخرمية
بعد جاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ، ورئيس الخرمية الأكبر ، وكانت
هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التي تعيث في الأرض فساداً ، وتخيف
السبيل ، وتبيح الحرمات . وأما توماس الصقلي فرجل أرمني الأصل ،
قاد التأثيرين على الامبراطور بسبب الفساد الذي استشرى في الدولة ، وسوء
الأحوال الدينية والاجتماعية . وقويت هاتان الثورتان ، واستفحل شأنهما ؛
إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمدّه بالعون ، وفعل ميخائيل وخلفه ثيوفيل
مثل ذلك بالنسبة إلى بابك الخرمي ، ولكن استطاع ميخائيل بعد كثير عناء
أن يقضى على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر في
بلادهم ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولي عهده
المعتصم أن يجدد ليقلم أظفاره ويقضى عليه :

(١) الطبري ١٠ : ٩٩ ، الجهمشيري ٢٠٧ ، ابن خلدون ٣ : ٢٢٥

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركي الأفشين ، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر ، ولما ضيق الأفشين عليه الخناق ، وأحس أن الدنيا ضاقت به ، أرسل إلى الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه ، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ، ويمنّيه بأن الغزو سيكون سهلاً ما دامت جيوش المسلمين مشغولة في حربها معه . واستجاب ثيوفيل لنداء بابك ، وكان بذلك يخدم غرضين : فهو يخفف الضغط عن حليفه ، ثم هو يثار لأمتة من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه ؛ ولكن المعتصم كان حازماً ، فاحتمل طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك إلى أن انتصر عليه ، وشتت شمله ، ومثّل به .

أما ثيوفيل فقد كان اتخذ زبارة مسقط رأس المعتصم هدفاً لهجومه . ويحدثنا ابن الأثير^(١) أنه قتل من بها من الرجال وسبي الذرية والنساء . وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل عيونهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة ، فصاحت : وامعتصماه ، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب : لبيك يا أماء ؛ وسأل المعتصم : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهى عين النصرانية ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية ، وهى مسقط رأس ثيوفيل . فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله ، وسار بنفسه

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٦٢ .

ومعه خيرة قواده ورجاله ، ولم تستطع عمورية أن تقف في وجه هذا الجيش الصلد الجبار ، نفرت صريعة ، وثأر المنتصم لمن نكّس لهم من المسلمين والمسلمات ، وأكل اللهب هذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاماً

وقد خلد أبو تمام قصة هذه الواقعة في قصيدته التي يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المني حفلاً معسولة الحلب
أبقيت جدّ بني الإسلام في صعد والمشرّكين ودار الشرك في صيب
أمّ لهم ، لو رجوا أن تفتدى جعلوا فداءها كل أم برة وأب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

لقد تركت أمير المؤمنين بها للناز يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى يغلّه وسطها صبح من اللهب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب (١)

و — ملامح عن خلفاء هذا العصر :

يتجه أغلب المؤرخين المحدثين إلى الاهتمام بالأحداث والتيارات المختلفة في الدول التي يتصدون لدراستها ، أكثر من اهتمامهم بأشخاص الملوك والسلاطين ، وأنا أميل إلى هذا الرأي ، وقد سرت عليه في رسم الصورة التي أردت أن أبرزها عن العصر الذي نتحدث عنه ، ولكن إذا كان لنا

(١) ديوان أبي تمام . القصيدة كلها من ص ٧ إلى ص ١٢ .

أن تتجاهل الملوك والسلاطين في زمان أو مكان ما ؛ فإنه لا يجوز لنا أن نتجاهل خلفاء هذا العصر ؛ ذلك لأن سلطة الخليفة كانت مطلقة استبدادية إلى حد كبير ، وذلك يتيح لهم أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم على شعوبهم ، ويحمل حياتهم تنعكس على حياة الكثيرين ، فقد كان الناس على دين ملوكهم كما جاء في المثل العربي ، ومن أجل هذا ما كانت لتكمل الصورة عن هذا العصر دون أن نكتب لمحة سريعة عن شخصية خلفائه .

السفاح : (١٢٢ - ١٢٦ هـ)

ألقى أبو العباس خطابا هاما عقب توليته الخلافة قال فيه : « فأنا السفاح المبيح والثائر المبير » ، وقد أطلق عليه لقب السفاح بعد هذا الخطاب ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحدته بنفسه بالتمرد ، ويحتمل كذلك السخاء وبذل المال ؛ والأول أغلب .

وكان أبو العباس موعوكا ، فلم يسترسل في خطبته طويلا ، وإنما اشتد به الوعك فجلس على المنبر ، وقام دونه عمه داود بن علي فألقى خطابا طويلا^(١) وكان أبو العباس في أوائل أيامه يظهر للندماء ، ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعي ، فكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة : « أحسنت والله أعد هذا الصوت » ؛ وكان لا يحضره نديم ، ولا مخن ، ولا مله ، فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلّت أو كثرت ، وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد ، ويقول : « العجب من يفرح إنسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرّه تسويفا وعدة »^(٢) .

(١) انظر الطبري ٩ : ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) الجاحظ : التاج ص ٣٣ ، المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢١٨ .

وبما يدل على كرم السفاح وسماحته هذه القصصة الطريفة التي يرويها
 الأصفهاني ، وهالك نصها : « كان أبو دلامة واقفاً بين يدي السفاح فقال له :
 سلق حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أنصيد به . قال أعطوه إياه . قال :
 ودابة أنصيد عليها . قال : أعطوه دابة . قال : وغلام يصيد بالكلب .
 قال : أعطوه غلاماً . قال : وجارية تُصلح لنا الصيد ونطعمنا منه .
 قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين ، فلا بد لهم من
 دار يسكنونها . قال : أعطوه داراً . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين
 يعيشون ؟ قال : أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة غامرة . قال : وما الغامرة ؟
 قال : لا نبات فيها . قال : قد أعطيتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف
 جريب غامرة من فيافي بني أسد . فضحك الخليفة وقال : اجعلوها كلها
 عامرة . قال أبو دلامة : فأذن لي أن أقبل يدك . قال : أما هذه فدعها .
 قال أبو دلامة : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها . » (١)

المنصور : (١٣٦ - ١٥٨ هـ)

فل بنو العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً ، جماعاً للمال ،
 تاركاً للهو واللعب . (٢)

وكان يسلك طرقاً لجمع المال تدل على ذكائه وبالغ حرصه ، فقد روى
 أنه عمل للكوفة والبصرة خندقاً وسوراً وقرر أن يجمع نفقاتهما من
 الأهالي ، ورغب ألا يفوته منهم أحد ، فامر أن يمنح كل فرد خمسة دراهم ،

(١) الأغاني ٩ : ١١٦

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠١

فتقدموا جميعاً لأخذ هذه الدراهم وبذلك تمسكن من حصر عددهم ؛ فأمر
بأن يُجبي من كل واحد أربعون درهما . فقال الشاعر :

يا لقوم مالمقيننا من أمير المؤمنين
قسم الخمسة فينا وجبانا أربعينا (١)

وكان المنصور بخيلاً كزاً ، حدثّ الوضين بن عطاء قال : استزارني
أبو جعفر وكانت بيني وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة
السلام ، فخلونا يوماً ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟ قلت الخُبر الذي
يعرفه أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم
لهن . فقال لي : أربع في بيتك ؟ قلت : نعم . وردد المنصور عليّ ذلك
ثلاثاً حتى ظننت أنه سيموأي . ثم رفع رأسه إلى وقال : أنت أيسر العرب ،
أربع مغازل يدُرنَ في بيتك (٢) .

ويروى أن أبا دلالة دخل على المنصور فأنشده :

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثياباً جمّة وقضيت ديني
فصدّق يافدتك الناس رؤيا رأيتها في المنام كذاك عيني
فأمر له بذلك ، وقال له : لا تعد أن تتحلم عليّ ثانية ، فأجعل حلمك
أضغاثاً ولا أحققه (٣) .

ولما مات ابنه الأكبر جعفر ، جزع المنصور عليه ، وطلب من بين
بنى هاشم من ينشده قصيدة أبي ذؤيب .

(١) ابن الأثير ٦ : ٢

(٢) المرجع السابق ٦ : ١٠

(٣) الأغاني ٩ : ١٢٣

أمن المنون وريها تتوجع

لعله يتسلى بها ، ولكن الربيع لم يجد بين بني هاشم من يحفظها ، فحزن لذلك المنصور وأمره أن يحضر له من ينشده إياها من بين العامة ؛ وجد الربيع حتى أحضر له شيخاً كبيراً مؤدّباً ، وبدأ الشيخ ينشد القصيدة حتى قال :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

فقال المنصور : صدق والله ، أنشدني هذا البيت مائة مرة ليردد هذا المصراع على ؛ ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الإنشاد خرج ، فتبعه الربيع وقال له : أأمر لك أمير المؤمنين بشيء ؟ فأراه صرة في يده فيها مائة درهم (١) .

وهناك أقاصيص كثيرة لا يقف فيها المنصور موقف المانع المقتر فحسب ، ولكنه يسترد أو يحاول أن يسترد متحاً دفعها سواء من الأجواد ؛ فقد روى الأصفهاني أن المؤمل الشاعر قدم على المهدي بالرسى ، وهو إذ ذاك ولي عهد ، فامتدحه بأبيات ، فتمنحه المهدي عشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور ، فكتب المنصور إلى المهدي يعذُّ له ويلومه ، وطلب الشاعر حتى أتى به ، فقال له المنصور : أتيت غلاماً غراً كريماً فخدعته فأنخدع ؛ أنشدني ما قلت فيه فأنشده قصيدة منها :

هو المهدي إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
لقد سبق الملوك أبوه حتى	بقوا ما بين كابٍ أو حسير
فإن بلغ الصغير مدى كبير	فقد خلق الصغير من الكبير

(١) الأغاني ٦ : ٥٩

فقال المنصور : أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم ،
يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقي ؛ ولما آلت الخلافة إلى المهدي
حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقايع المظالم ، فلما قرأها المهدي ضحك ،
وأعاد له ما أخذ منه ، وزاده أربعة آلاف درهم (١)

وكان مسلم الحادي من يجيدون الحدا ، وقد حدا يوما للمنصور حدا
أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله الحمل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطه
نصف درهم ؛ فقال مسلم : يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوث لهشام فأمر
لي بثلاثين ألف درهم ؛ فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف
درهم من أجل حدا ١١ يا ربيع ، وكسل به من يستخلص منه هذا المال ؛
قال الربيع : فما زلت أمشي بينهما وأروض المنصور فما سكنت حتى قبل مسلم
على نفسه أن يحدو للمنصور في ذهابه وإيابه بخير مؤنة .

وكان المنصور شديد الشغف بابنه المهدي ، فكان إذا صادر أحدا على
مال وضع ذلك المال مفردا في بيت المال ، وكتب عليه اسم صاحبه ،
فلما مَرَضَ مَرَضَ الوفاة قال لابنه المهدي : يا بني إني قد أفردت كل شيء
أخذته من الناس على وجه المصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فإذا
وليت أنت فأعده على أربابه ، ليدعو لك الناس ويحبوك (٢) .

ويقول يزيد بن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أمكر
ولا أنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور ؛ لقد حاصرني تسعة أشهر ، ومعى

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ٢٧٠ - ٢٧١

(٢) الأبيهي : المستظرف في كل فن مستظرف ١ : ١٧٢

(٣) الفخرى ص ١٣٦ ، ابن الأثير ٦ : ١٠

فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد حتى نال من عسكره شيئاً فما قدرنا ، لشدة
ضبطه لعسكره ، وكثرة تيقظه ، ولقد حضرني وما في رأسي شعرة بيضاء
ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء (١)

ولا أدل على حذق المنصور وعمق تفكيره من تصرفه في مطلع خلافته
فقد استعان بأبي مسلم الخراساني في القضاء على عبد الله بن علي ، حتى إذا
فرغ أبو مسلم من ذلك جاء الدور عليه ، وكذلك استعان بعيسى بن موسى
في القضاء على محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم ، واختار عيسى
ابن موسى لأنه كان في ذلك الحين ولياً لعهد ، فهو حريص على سلامة هذا
الملك الذي سيؤول إليه فيما بعد ، ولما انتهى عيسى من مهمته كاشفه المنصور
بنيته ، وأرغمه على أن يقدم للمهدي على نفسه في ولاية العهد .

ولم يكن المنصور يحب الشراب ، ولا يسمح به على مائدته ، فقد قدم
عليه بختيشوع الطيب مرة ، فأمر المنصور أن يعد له طعام ، فلما جلس
بختيشوع إلى المائدة طلب شراباً ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير
المؤمنين . فقال : لا آكل طعاماً ليس منه شراب ، فأخبر المنصور بذلك ،
فقال : دعوه ؛ فلما حضر العشاء فُعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب ،
فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين ؛ فتعشى وشرب ماء دجلة ،
فلما كان من الغد ، نظر إلى مائه وقال : ما كنت أحسب شيئاً يجزى من
الشراب ، فهذا ماء دجلة يجزى منه (٢) .

وكان لا يظهر لنديم قط ، فإذا جلس يسمع جعل بينه وبين الستارة

(١) ابن طباطبا : الفخرى ١٣٦ - ١٣٧

(٢) الطبري ٩ : ٣٠٩ .

عشرين ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها ، وكان لا يشيب أحداً من
ندماءه وغيرهم درهماً ، فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يُقطع أحداً ممن
كان يضاف إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض ، وكان
يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، ويستطيع أن يذكر بها
من نالها ، وكان أبو جعفر يقول : من صنع مثل ما صنع إليه فقد كافأ ،
ومن أضعف كان مشكوراً ؛ ومن علم أن ما صنع فإلى نفسه صنع ، لم يستطع
الناس في شكرهم ، ولم يستزدهم في مودتهم ؛ ولا تلتبس من غيرك شكر
ما وقيت به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ،
فأكرم وجهك عن رده (١) .

ومن أجمل ما وُصف به أبو جعفر المنصور قول ابن هرمة :
إذا ما أتى شبتنا ، مضى كالذي أتى وإن قال : إني فاعل ، فهو فاعل
كريم له وجهان : وجه لدى الرضا أسيل ، ووجه في الكريهة باسل
فأم الذي آمنت آمنة الردى وأم الذي حارت بالشل ثاكل (٢)

المهدى : (١٤٨ - ١٦٩ هـ) .

كان أبودلامة الشاعر أدل من هنأ المهدي بالخلافة ، وعزاه بوفاة أبيه ،
وكانت قصيدته في ذلك رقيقة جميلة تقتطف منها :

عيناي : واحدة تـرى مشرورة بأميرها جذلي ، وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ، ويسوؤها ما أنكرت ، ويسرها ما نعرف

(١) الناج للماحظ ص ٣٤ .

(٢) أبو علي الفاي : ذيل الأمالي والنوادر ص ٤٠ .

فيسوؤها موت الخليفة محرما ويسرها أن قام هذا الأراف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ولذلك جنات النعيم تزخرف (١)
وقد سبق أن تحدثنا عن كرم المهدي وسخائه ، ونضيف الآن قصة
أخرى تدل على هذا السخاء ؛ ذكر عبد الأعلى بن عبد الله الجمحي أنه حمل
ديننا في عسكر المهدي ، وأن المهدي ركب يوما بين أبي عبيد الله وعمر بن
بزيع ، وركب الجمحي وراعه على برذون قطوف [ضعيف المشي] ، فقال
المهدي : ما أسبُ بيت قالت له العرب ؟ فقال أبو عبيد الله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب متمثل
فقال المهدي : هذا أعرابي قح — فقال عمر بن بزيع : قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما متمثل لي ليلى بكل سبيل
فقال المهدي : ما هذا بشيء ؛ إنه يحاول أن ينسى ذكرها ، فقال الجمحي :
حاجتك عندي يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقني . قلت : لا لحاق لي مع دابتي .
فقال : احمله على دابة . فقلت : هذا أول الفتح . وحملت عليها فلحقته ،
فقال : ما عندك ؟ فقلت قول الأحوص :

إذا قلت إني مُشتف بِلِقائِها فحُمَّ التلاقي بيننا زادني سقا
فقال : أحسنت والله : أقضوا دينه (٢) .

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهًا بالمنصور نحواً
من سنة ، ثم ظهر لهم ؛ فأشار عليه أبو عون بأن يحتجب عنهم ، فقال :
إليك عني يا جاهل ، إنما اللذة في مشاهدة السرور ، وفي الدنو من سرني ،

(١) السيوطي تاريخ الخلفاء ١٠٦ — ١٠٧

(٢) الجهمشاري : الوزراء والكتاب ١٤٤ — ١٤٥

فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ ولولم يكن في الظهور للندماء
والأخوان إلا أني أعطيتهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني لجعلت
لهم ذلك حظاً موفراً (١)

وكان المهدي لا يشرب النبيذ ، ولكن أصحابه كانوا يشربون عنده
فكان يعقوب بن داود ينهيه عن ذلك ويعظه ، ويقول : ليس على هذا
استوزرتني ولا عليه صحبتك ؛ بعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب
هناك النبيذ ، فضيق على المهدي حتى قيل :

فدفع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر (٢)
وكان المهدي كثير العطايا ، يواترها ، قل من حضره إلا أغناه ، وكان
لين العريكة ، سهل المعاملة ، لذيق المنادمة ، ضاحك السن ، قليل الأذى
والبداء (٣) .

وكان كثير العفو ؛ يروى أنه عتب غير مرة على بعض القواد ، وقال
له في آخر الأمر : إلى متى تذنّب ؟ فأجاب : إلى أبد نسيء ويبقيك الله
فتعفو عنا . فاستحيا منه ورضى عنه (٤) .

ومن حيله الطريقة التي لجأ إليها ليقلل من ورع أحد علماء عصره
وعفته ، ما ذكره الفضل بن الربيع قال : دخل شريك - وكان كثير الورع
والابتعاد عن مواطن الشبه - على المهدي يوماً ، فقال له المهدي : لا بد أن
تجيبني إلى خصلة من ثلاث . قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : إما أن

(١) الجاحظ : التاج ٣٤ — ٣٥

(٢) ابن الأثير ٦ : ٢٤

(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٥

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٧

تلى القضاء ، أو تحدث ولدى وتعلمهم ، أو تأكل أكلة . ففكر ثم قال :
الأكلة أخفن على نفسى . فطلب المهدي إلى الطباخ أن يُعِدَّ له مائدة كثيرة
الخير ، وبدأ شريك ، واستهواه الطعام اللذيذ فأكل حتى شبع ؛ قال القيم
على المطبخ للمهدي بعد ذلك : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه
الأكلة أبداً . قال الفضل بن الربيع : فما شريك بعد هذا إلى حياة الرخاء
فوالى القضاء وعلم الأولاد ، وحديث ، ولقد كُتِبَ بأرزاقه مرة إلى
الجهنم ، فضايقه في النقص ، فقال له الجهنم : إنك لم تبع قمحاً . قال له
شريك . بلى والله لقد بعث أكبر من القمح ، لقد بعث ديني (١) .

واختلف في سبب موت المهدي ، فقيل إنه طرد ظبياً في إحدى
مرات خروجه للصيد ، فدخل الظبي باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه
دون أن يتمسك المهدي من رده ، وكانت عتبة الباب العليا غير مرتفعة ،
فاصطدم بها الخليفة ، فسقط ومات لساعته ؛ وقيل إن بعض جواريه
جعلت سماً في بعض المآكل الجارية أخرى ، فأكل المهدي منه تظرفاً وهو
لا يعلم ، فمات ؛ وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته
وعليهن المسحوح :

رحن في الوشى وأقبلن عليهن المسحوح
كل نطاح له يو ما من الدهر نطوح
لست بالباقي ولوعنهم رت ماعمر نوح
فعلى نفسك نخ إن كنت لا بد تنوح (٢)

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٤٧

(٢) الفخرى ص ١٥٧

الهادي : (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

يقول الجاحظ عن الهادي ^(١) : كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سيء الظن ، قل من توقاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : « لا يعطيني بعدها شيئاً » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

وكان الهادي حازماً ، يعرف اللهو ، ولسكن اللهو لا يشغله عن واجبه ، بل يعطى الجد وقته ، ويدع للهو مجالسه ؛ لم يستفد منه لاه أكثر مما يجب أن يستفيد ، ولا أودى منه جادٌّ وإن سبب جده للهادي بعض الحرمان ؛ جلس الهادي يوماً وعنده بعض المغنين فقال لهم : من أطربني اليوم منكم فله حكمه . فغناه إبراهيم الموصلي :

سليمي أجمعت يدينا

فطرب حتى قام عن مجلسه واستعاده ، فأعاد . فقال : أنت صاحبي فاحتكم . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك بن مروان ، وعينه الحرارة بالمدينة . فدارت عينا الهادي في رأسه حتى صارتا جمرتين ثم قال : يا ابن اللخناء ، أردت أن تسمع العامة أنك أطربني ، وإني حكمتك فأفطعتك ، أما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك ، لضربت الذي فيه عيناك ، ثم سكت هنيهة ، قال إبراهيم : فرأيت ملك الموت قائماً بيني وبينه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيم الحراني فقال : خذ

(١) التاج ص ٣٥

بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ منه ما شاء . . . (١) .

وكان عبدالله بن مالك يتولى شرطة المهدي ، قال : فكان المهدي يأمرني بضرب ندماء الهادي ومغنيه وحبسهم صيانة له منهم ؛ فكنت أفعل ، وكان الهادي يرسل إليّ بالتخفيف عنهم فلا أفعل ، فلما مات المهدي وولى الهادي أيقنت بالتلف ، فاستحضرتني يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على كرسي والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ؛ فقال : لا سلم الله عليك ، أتذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني وضربه فلم تقبل قولي ؟ وكذلك فعلت في فلان وفلان - وعدد ندماءه - فلم تلنفت إلى قولي ؟ قلت : نعم ، أفأذن لي في ذكر الحجة ؟ قال : نعم . قلت : ناشدتك الله ، لو أنك قلدتني ما قلدتني المهدي ، وأمرتني بما أمر ، فبعثت إليّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعته قوله ، وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانني فقبلت يده ، ثم أمر لي بالخلع . وقال : وليتك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً ، فضيت مفسكراً في أمري وأمره ، وقلت : حدثني يشرب ، والقوم الذين عصيته في أمرهم هم ندماءؤه ووزراؤه وكتابه ، وكأني بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبون على رأيه ، ويحسنون له هلاكه . قال : فإن لجالس وعندي بسنية لي والكانونيين يهدي ، وقدامي رقاق وكامخ ، وأنا أشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وآكل وأطعم الصغيرة ، وإذا بوقع حوافر الخيل ، فظننت أن الدنيا قد زلزلت ، فقلت : هذا ما كنت أخافه ، وإذا بالباب قد فتح ، وإذا الخدم قد دخلوا والهادي في وسطهم على دابته ، فلما رأيت وثبت فقبلت يده . . . فقال لي :

(١) الجاحظ : التاج ٣٦ - ٣٧

يا عبد الله إنى فكرت فى أمرك، فقلت : ربما سبق إلى ذهنك أنى إذا شربت
وحولى أعدائك أزالوا حسن رأيي فيك فيقلبك ذلك ، فصرت إلى منزلك
لأونسك ، وأعلمك أن ما كان عندي من الحقد عليك قد زال جميعه ، فهات
وأطعمنى مما كنت تأكل ، لتعلم أنى قد تحرّمت بطعامك (١) .

ومن جهة الشراب ، فقد خطا الهادى خطوة جديدة فى طريق نشره ؛
لقد كان المنصور - كما سبق - لا يشرب ولا يسمح بالشراب على مائدته ،
نخطا المهدي الخطوة الأولى بأن سمح لندمائه بالشراب فى حضرته ولو أنه هو
لم يشرب ، ولكن الهادى والرشيد شربا ، إذ كانا قد تعلما الشراب فى قصر
أبيهما وهما أميران ؛ يروى ابراهيم الموصلى - وكان كثير الشراب شغوفا به -
أن المهدي قال له : لا تدخل على موسى وهرون ألبيتة فوالله لئن دخلت عليهما
لأفعلن ولأصنعن فقلت : نعم . ثم بلغه أن دخلت عليهما وشربت معهما ،
وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربنى ثلاثمائة سوط ، وقيدنى وحبسنى (٢) .

هذا وقد اتصح شرب الهادى قبل خلافته وبعدها من قصة عبد الله بن
مالك التى سبق إيرادها .

الرشيد : (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلماهم وكرمائمهم ، يحج
سنة ويغزو سنة طيلة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة
ركعة ، وحج ماشيا ، لم يحج خليفة ماشيا غيره ، يتشبه فى أفعاله بالمنصور
إلا فى بذل المال ، فاه لم ير خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٤ - ٣٥ ، الفخرى ١٦٥ - ١٦٦

(٢) الأغاني ٥ : ٤

إحسان محسن ولا يؤخر؛ يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقهاء، وكان كثير التواضع للعلماء (١).

ومن أبرز صفات الرشيد أنه ريح عاصفة حيناً، ونسيم رخاء حيناً آخر، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله؛ يشور فيزأر ويضطرب، ويوعظ فيبكي وينتجب، وكان يقرب الفكرة المهددة، كما يدنى الفارس المغوار. حبس الرشيد أبا العتاهية، وجعل عليه عيناً يأتية بما يقول، فرآه يوماً قد كتب على الحائط:

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسمى هو الظلوم
إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
فأخبر بذلك الرشيد فبكي وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار (٢).
وقال الأصمعي: صنع الرشيد طعاماً، وزخرف مجالسه، وأحضر
أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعم هذه الدنيا. فقال
أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور
فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

يسعى إليك بما اشتيت لبدى الرواح أو البكور
فقال: حسن، ثم ماذا؟ فقال:

فاذا النفوس تقعقت في ظل حشرة الصدور
فهنالك تعلم موقعنا ما كنت إلا في غرور

(١) الفخرى ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ابن الأثير ٦: ٧٢.

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى لأبي العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين
لتسره فأحزنه ! فقال الرشيد : دعه ، فإنه رأى في عيني فشكره أن يزيدنا منه (١) .
وقد أدرك بعض المقربين إليه من الشعراء هذه النزعة العاطفية فيه ؛
فكان أبو العتاهية مثلاً يستغل هذه النزعة ليذكر بالرشيد ، ويشير أحزانه
ويستنزله دموعه انتقاماً منه في بعض الأحيان ؛ حدث أبو العتاهية قال :
كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين في الزلازل إذا ركبها ، وكان يتأذى
بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء أن يعملوا
لهؤلاء شعراً يغنون فيه . فقليل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية
وهو في الحبس ؛ قال أبو العتاهية : فوجه إلى الرشيد أن أقول شعراً
ليسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقي ، فغاضني ذلك ، فقلت : والله لأقولن شعراً
يحزنه ولا يسرُّ به ، وعملت شعراً ، ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ،
فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجروح
لدواعي الخير والشـر	دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنـب	توبة منه نصوح ؟
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن	الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا	بين ثوبيه فضوح

(١) الفخرى ١٦٩ - ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٧٢ - ٧٣ .

كم رأينا من عزيز طويت عنه السكشوح
صاح منه برحيل صاح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الآر رض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسداً ما فيه روح
كلنا في غفلة وال موت يغدو ويروح
قال : فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب (١) .

وكما كان الرشيد سريع البكاء كان سريع الضحك ؛ فقد روى ابن الأثير (٢) أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبي مريم المضحك الفكه حتى أنه أسكنه معه في قصره ؛ وقد مرَّ به الرشيد في فجر ليلة وهو نائم ، فكشف اللحاف عنه وقال : كيف أصبحت ؟ فأجاب : ما أصبحتُ بعد ، إذهب إلى عمك . قال الرشيد : قم إلى الصلاة . فأجاب : هذا وقت صلاة أبي الجرود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف (٣) . فغضى الرشيد يصلي ، ثم قام ابن أبي مريم ، وجاء حيث يصلي الرشيد ، فسمعه يقرأ في الصلاة « ومالي لا أعبد الذي فطرني » (٤) فقال ابن أبي مريم : ما أدري والله !! فأتاك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : أفى الصلاة أيضاً ؟

(١) الأغاني ٣ : ١٧١ — ١٧٢

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٧١ — ٧٢

(٣) أبو الجرود أحد الفقهاء الذين يرون التبكير بصلاة الصبح ويميلون إلى أدائه في الغسق ، وكان أبو يوسف لا يرى ذلك

(٤) سورة يس الآية رقم ٢٢

قال ابن أبي مریم : ما صنعت ؟ قال قطعت على صلاتي . قال : والله ما فعلت ، إنما سمعت منك كلاماً غمّني حين قلت : « وما لي لا أعبد الذي فطرني » فتملت : لا أدري . فعاد الرشيد إلى الضحك ، ثم قال : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بهما .

وكان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء ، يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده ، حتى يصل به إلى حد السرف ؛ وقف رجل من بني أمية في طريق الرشيد ومعه كتاب فيه :

يا أمين الله إني قائل قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما وهما بعد لام وأب
فصل الأرحام منا إنما عبد شمس هم عبد المطلب

فأمر له بكل بيت ألف دينار وقال : لو زدتنا لزدناك ^(١)
هذا مثل عادي من جود الرشيد ، ولن نحاول إثبات أمثلة أخرى ،
فجود الرشيد الزاخر تفيض به كل كتب الأدب والتاريخ .

الأمين : (١٩٣ - ١٩٨ هـ)

هناك رأى يشير الشك حول ما كتب عن خلاعة الأمين ومجونه ،
ويرى أن هذا الذي كتب كان متأثراً بهزيمة الأمين وانتصار المأمون
ونفوذه ، وأنا لا أقبل هذا الرأي لأن فيه تشكيكا في التراث العلمي الضخم
الذي بين أيدينا ، ثم إن ما كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جله في عهد

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٨٠

المأمون ، وإذاً فلا نفوذ للمأمون في توجيه هذا التاريخ ، وقد كتب
عن الأمين كثير من ثقات المؤرخين والمكتتاب ، وكلهم أجمعوا على خلاعته
وإسرافه في التهلك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصادر مختلفة ،
ورواة متعددين ، ولا يمكن أن نعتقد أن هذه المصادر وأولئك الرواة قد
أجمعوا على باطل ، هذا ولم يتول الخلافة أحد من ذرية المأمون ، وعلى ذلك
فلا يمكن أن نقول إن نفوذ المأمون عاش طويلاً ، وأثر في كتابة تاريخ
هذه الحقبة ، وهناك دليل قاطع على خلاعة الأمين ومجونه ، وهو المديح
الذي سجله الحسين بن الضحاك وأبو نواس وغيرهما في شعرهم ؛ ففي هذا
المديح ذكره لا لمواقف عظيمة وبطولة حربية ، وإنما وصف لحراقات دجلة
وليالى الأنس فيها والجوارى والغلمان (١) .

وقد رضى المعتصم والوائق والمتوكل عن الحسين بن الضحاك أو الخليل
كما يسميه الأصفهاني ونادموه وشربوا معه مع أنه كان النديم المفضل لدى
الأمين ، وكان مغضوباً عليه من المأمون ، وهذا يدل على أن تيار السخط
ضد الأمين وأتباعه كان قد توقف ؛ فلا بد بعد ذلك أن يكون المؤرخون
قد كتبوا بوحى من النزاهة والعدالة يدعونا إلى أن نجل آرامهم ، ونثق
في كتاباتهم إلى حد كبير ، وليس معنى هذا أن كل ما كتب عن الأمين
صحيح في جملته وتفصيله ، فإني أميل إلى القول بأن بعض الرواة استغلوا
حماقة الأمين ومجونه فوضعوا بعض الأقاصيص عنه ، ولكن هذا يجب

(١) اقرأ ديوان أبي نواس في مواضع متعددة وقرأ كذلك عصر المأمون لفريد رفاعي
٣ : ٢٩٨ - ٣٠٢ وترجمة الحسين بن الضحاك في الأغاني ٦ : ١٦٥ - ٢٠٥ وسيرد
بعض هذا الشعر هنا .

ألا يشير الشكوك حول التراث العلمي الضخم الذى كتبته الثقات من المؤرخين؛ هذا ومن مهمة المؤرخ الحديث أن يزن الأمر فى صدد دراسته للعصر الذى يكتب عنه فينتقى للكتابة ما تدل الدلائل على صحته وصدقه ؛ فلنعد إلى الأمين إذا فى ظل هذا الاتجاه :

يروى الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال : ما كان أعجب أمر المخلوع ؛ أما تبذله فما كان يبالي أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرّقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى خلق الله لذهب وفضة ، وأنهم للأموال إذا طرب أو لها ، وقد رأيتهم وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوقر زورق ذهباً فانصرف به ، وأمرلى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمانى ... وقد رأيتهم يوماً وعلى رأسه بعض غلمانة فنظر إليه فقال : ويلك !! ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك [البدرة كيس فيه عشرة آلاف درهم ^(١)] .

وكان الأمين فى نهاية الشدة والقوة والبطش حتى يروى أنه قتل مرة أسدا بيديه ، وله فصاحة وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سيء التدبير ، ضعيف الرأى ، أرعن ، لا يصلح للإمارة ^(٢) .

وعقب بيعته أرسل فى طلب الخصيان وابتاعهم ، ووجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهمين وضمّهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب

(١) التاج ٤٢ - ٤٣

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء صفحة ١١٦

عن أخويه وأهل بيته ، واستخف بهم وبقواده ، وقسم ما في بيوت
الأموال ، وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وأمر
ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ، وعمل خمس حراقات في دجلة على
صورة الأسد والفيل والعقرب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيما ،
فقال أبو نواس في ذلك :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برّا	سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح	ين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اس	تعجلوها بجيئة وذهاب (١)

ويسجل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن مخارق صورة ناطقة من صور
مجون الأمين وخلاعته وهي تدل على أن الرجل كان ينغمس في المرح
والخلاعة إلى قتته ، وأنه كان ينسى نفسه إذا دقت الدفوف وحفت به
الجواري ، قال مخارق : مرت بي ليلة ما مر بي قط مثلها ؛ جاءني رسول
محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذني وركض بي إليه ركضا ، فحين وافيت
وجدت إبراهيم بن المهدي قد أُتي به على مثل حالي ، فنزلنا فإذا هو في صحن
لم أر مثله ، قد مُلئ شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وكانت الدار مملوءة
بالوصائف يغنين ويطلبن ، ومحمد في وسطهن يرتكض ، فجاءنا رسوله
فقال : قوموا في هذا الباب بما يلي الصحن فارفعوا أصواتكم بالغناء وإياكم أن

(١) ابن الأثير ٦ : ٩٩ - ١٠٠

تَقْصِّرَا ، ثُمَّ أَخَذَ الْجَوَارَى وَالْمَخْشُونَ يَزْمُرُونَ وَيَضْرِبُونَ :
هَذِي دَنَانِيرَ تَنْسَانِي وَأَذْكَرَهَا وَكَيْفَ تَنْسَى مَحَبًّا لَيْسَ يَنْسَاهَا
فَمَا زِلْنَا نَشْقُ حُلُوقَنَا وَنَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا خَوْفًا مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَنَحْمَدُ يَحْيَا
دُونَ سَامٍ ، يَدْنُو إِلَيْنَا مَرَّةً وَيَتْبَاعِدُ أُخْرَى ، وَيَحْوِلُ الْجَوَارَى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ
أَحْيَانًا حَتَّى أَصْبَحْنَا (١) .

وَمِنْ عَجِيبِ مَا رَوَى عَنْ الْأَمِينِ أَنَّهُ ظَلَّ سَادِرًا فِي ضَلَالِهِ وَمَجُونِهِ حَتَّى
السَّاعَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا عَرْشُهُ يَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ ، وَالشَّدَّةُ تَحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛
حَدَّثَ عَلَاوِيَّهِ أَنَّ الْأَمِينَ كَانَ يَجْلِسُ إِلَى إِحْدَى جَوَارِيهِ تَغْنِيهِ وَقَدْ أَحِيطَ
بِهِ ، وَبَلَغَتْ حِمَارَةُ الْمُنْجَنِيْقِ بِسَاطَهُ (٢) .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا رَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِي قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ عَلَى الْأَمِينِ
يَوْمًا ، وَقَدْ اشْتَدَّ الْحَصَارُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ إِذَا هُوَ كَالْوَالِهِ
وَحَوْلُهُ خُدَمُهُ وَغُلَامَانَهُ ، وَكُلُّهُمْ يَبْحَثُونَ فِي بَرَكَةِ مَاءِ الْقَصْرِ ، وَفِي الْمَجْرَى
الَّذِي يَصِلُ الْبَرَكَةُ بِدَجْلَةٍ وَالْأَمِينُ يَتَّبِعُهُمْ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِمْ ، فَسَلِمْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ
يَرُدْ ، فَتَنَيْتُ بِالسَّلَامِ ، فَقَالَ : لَا تُؤْذُونِي ؛ فَمَقَرَطَنِي قَدْ ذَهَبَتْ مِنَ الْبَرَكَةِ
إِلَى دَجْلَةٍ . وَالْمَقَرَطَةُ سَمَكَةٌ كَانَتْ قَدْ صِيدَتْ لَهُ وَهِيَ صَغِيرَةٌ ، فَقَرَطَهَا
حَلَقَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ ، فِيهِمَا حَبَّتَا دُرٍّ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِي : نَفَخَرَجْتَ
وَأَنَا مُؤَيَّسٌ مِنْ فَلَاحِهِ ، وَقُلْتُ : لَوْ ارْتَدَعَ فِي وَقْتٍ لَكَانَ هَذَا الْوَقْتُ (٣) .
وَمَا يَدُلُّ عَلَى تَفَاهَةِ عَقْلِ الْأَمِينِ مَا حَدَّثَ بِهِ حَمَادُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ :

(١) الْأَغَانِي ١٦ : ١٣٣ .

(٢) الْجَاهِظُ : النَّاجِ ص ٤٣

(٣) الْمَسْعُودِيُّ : مَرْوَجُ الذَّهَبِ ٢ : ٣٠١ — ٣٠٢

دخلت على الأمين فرأيتَه مغضباً كالحأ ، فقلت له : ما لأمير المؤمنين ، تتم
الله سروره ولا نقصه ، أراه كالحائر ؟ قال : غاضني أبوك الساعة لارحمه الله ،
والله لو كان حيا لضربتَه خمسمائة سوط ، ولولاك لنبشت الساعة قبره
وأحرقت عظامه . فقلت : أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، ومن
أبي وما مقداره حتى تغتاظ منه ؟ وما الذي غاظك فلعل له فيه عذرا ؟
فقال : شدة محبته للمأمون ، وتقديمه إياه عليّ ، حتى قال في الرشيد شعراً قدّم
فيه المأمون عليّ ، وغضبته الساعة فأورثني هذا الغيظ ، فقلت : والله ما سمعت
بهذا قط ، ولا لأبي غنام إلا وأنا أرويهِ ، ما هو ؟ فقال :

أبو المأمون فينا والأمين له كنفان من كرم ولين

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لم يقدم أبي المأمون لشدة محبته له ،
وإنما لأن الشعر لا يصح وزنه إلا هكذا . فقال : كان ينبغي له إذ لم يصح
الشعر إلا هكذا أن يدعه إلى لعنة الله ، فلم أرل أداريه وأرفق به حتى
سكن ، فلما حضر المأمون سألتني عن هذا الحديث فحدثته به ، فجعل يضحك
ويعجب منه (١)

المأمون : (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

كان المأمون عالم بنى العباس وحكيمهم ، وكان فطنا شديداً كريماً ،
وكان من أفضل خلفائهم وحلمائهم .

ولما تسلم الخلافة تسلم تركة مثقلة ، وإمبراطورية مضطربة ، تتجاذبها
القوى وتضطدم فيها الأهواء ، فالخراسانيون وعلى رأسهم الفضل بن سهل

(١) الأغاني ١٠ : ١١٨ - ١١٩

يرون أن هذه الدولة قامت بسيوفهم ، وأنه لا بد أن يكون لهم فيها النفوذ والسلطان ، والعرب تأخذهم الغيرة من بقاء المأمون بخراسان وانحيازه لجانبهم ، وانتهاز أخطا من الناس هذا الاضطراب فقاموا بثورات كثيرة وفتن ؛ ومن أهم ما شهده عصر المأمون من تمرد :

١ - خروج أبي السرايا السري بن منصور الشيباني واستيلائه بالقوة على البصرة والكوفة ومكة والمدينة وكان يدعو للطالبيين (١) .

٢ - انتفاض بغداد على الحسن بن سهل بسبب استبداد الفضل بن سهل بالمأمون في خراسان ، وإخراج الخلافة من بني العباس للعاويين بالمبايعة لعلي الرضا بولاية العهد ، وقتل هرثة ، ولهذا كله خلع البغداديون المأمون وولوا عليهم ابراهيم بن المهدي (٢) .

٣ - خروج نصر بن شبث وهو عربي شريف قام ليثار الأمين ، وليدافع عن العنصر العرب الذي رأى نفوذه يضعف ، ويطغى عليه الفرس (٣) .

٤ - الزط - وهم قوم من أخطا الناس غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها وأفسدوا (٤) .

ولكن المأمون لم يزعج لهذا ولا لأكثر منه ، وأعد عدته ، ورسم خطته ، فهزم أبا السرايا بواسطة هرثة بن أعين ، وانتقل بنفسه إلى بغداد وفي الطريق إليها تخلص من الفضل بن سهل ومن علي الرضا ، فرحب به

(١) انظر ابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٥

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٢

(٤) المرجع السابق صفحة ٢٥٧

البغداديون ، وعادوا إلى تأييده ، وضغط على نصر بن شيث حتى طلب
الأمان وجاء إليه ؛ وقلم أظفار الزط وأزال خطرهم [قضى عليهم المعتصم
فيما بعد] .

ويعتقد المؤرخون أنه لولا شخصية المأمون وكفائه لهرت هذه
الأحداث الدولة الإسلامية ولعرضتها للخطر والانحلال .

وفي عهد المأمون نال العلويون حظوة الخليفة العباسي ، ولأول مرة
في تاريخ هذه الدولة يعان الخليفة العباسي أنه نظر في ولد العباس وولد على
فلم يجد في وقته أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى الرضا ، فبايع له
بولاية العهد ، وضرب اسمه على الدنانير والدرهم ، وزوجه ابنته أم حبيبة ،
كما زوج ابنته الأخرى أم الفضل من محمد بن على بن موسى الرضا ، وأمر
المأمون كذلك بخلع السواد شعار العباسيين ولباس الخضر شعار العلويين ،
وربما كان ذلك انساعا في أفق المأمون ، أو ربما كان في ذلك محققا لآمال
الخراسانيين الذين كانوا إلى أولاد على أميل ، غير أن العباسيين ثاروا ببغداد
لخروج الخلافة منهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي ،
ولم يجد الخليفة بدأ من الاستجابة لآل بغداد ، فانتقل إليهم من مرو ،
وحقق ما كانوا يطلبونه منه فتخلص من على الرضا ، أو أن عليا الرضا مات
في الطريق ، ثم خلع المأمون الخضر عقب وصوله إلى بغداد وعاد إلى لبس
السواد ، غير أن هذا لم يغير من حسن صلته بالعلويين بل ظل يرضى
شئونهم ويحلمهم ويقربهم منه ^(١) .

وكان العفو من أبرز صفات المأمون ، وهو كما يصفه شيخ كوفي « يوسفى

(١) المسعودى : روج الذهب ٢ : ٣٣٢ — ٣٣٣ ، ابن الأثير ٦ : ١١١

العفو في قلة التثريب (١) . وقد عفا المأمون في مواضع قل من يعفو في نظائرها ، وعفا عن أشخاص جل ذنبهم وعظمت جريرتهم إليه ، وكان يقول : لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالذنوب (٢) ولا معنى لعقوبة بعد قدرة (٣) .

عفا عن الفضل بن الربيع الذي هيج عناصر الشر عليه ، وأعد قيلاً من فضة وسلمه إلى علي بن عيسى ليقيد به عقب القبض عليه ، واكتفى المأمون عقب انتصاره بأن قال : أجمله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب ، ورد عليه داره ولم يوقع به أي عقاب (٤) . وعفا عن إبراهيم بن المهدي الذي نصب نفسه خليفة في بغداد حينما كان المأمون في مرو على الرغم من أن المعتصم والعباس بن المأمون أشارا بقتل إبراهيم ، ولكن المأمون هتف : أطلقوا عن عمي حديده ، وردوه إلى مكراً ، فلما ردّ قال : يا عم ، صر إلى المنادمة ، وارجع إلى الأنس ، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب ، وخلع عليه وحمله ، وأمر له بخمسة آلاف دينار (٥) .

وعفا عن الحسين بن الضحاك الذي يقول في رثاء محمد الأمين :
فلا تمت الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك فيه مبهداً
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١٩

(٢) الفخرى ص ١٩٥

(٣) فريد رفاعي : عصر المأمون ١ : ٣٥٠

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٠٣

(٥) الأغاني ٩ : ٥٧

والذى يقول :

أردّ يدأ منى إذا ما ذكرته على كبد حرّى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آمالهم ما تمت
ويطلب الحسين العفو فتدمع عينا المأمون ويقول : قد عفوت عنك ،
وأمرت بإدراك أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبة ذنبك
امتناعى عن استخدامك (١) .

وكان المأمون قليل اللهو ، أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع
حرفا من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبهاً بالرشيد ، فكان كذلك
سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين (٢)

وكان يشرب النبيذ قليلا (٣) . وقد صرفه عن اللهو والشراب انصرافه
إلى العلم ، وحببه للكتب وتمتعه باللذة العقلية ، ثم إعادة بناء الدولة بعد أن
أوشكت أن تنصدع ، وتذهب ريحها .

ومن المسائل التى أثبتت فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، أو محنة
خلق القرآن كما اصطلح على تسميتها . وقد وقف فيها المعتزلة مؤيدين
بالمأمون ضد أهل السنة والمحدثين ، وكانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى
عن الله تعالى ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى إلى تعدد القدماء ، وذلك
ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم : إن القرآن مخلوق
لأنه أصوات وحروف ، ولكنها ليست قائمة بذاته ، بل يخلقها الله فى غيره

(١) الأغاني ٦ : ١٧٥

(٢) الجاحظ : التاج ص ٤٣

(٣) انظر الطبرى ١٠ : ٢٥٦

كالروح المحفوظ أو جبريل أو النبي ؛ وكان المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، ولكن أهل السنة والمحدثين عارضوهم بإصرار وبدون أدلة قوية يعضدونها بها وجهة نظرهم ، وتدخل المأمون دخلاً عنيفاً واستغل سلطانه ليرغم الناس على القول بخناق القرآن ؛ ويأخذ عليه كثير من الكتاب هذا الموقف الذي حارب فيه الحريات ، واستعمل السيف لتقوية جانبه ، وأرهب علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد ، ولكن المنصف ربما استطاع أن يلتمس العذر للمأمون ، لأنه لم ير المسألة تمسه هو فلو كانت تمسه لعنا كئسه في حب العفو ، ولكنه رأى المسألة أعمق ؛ رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة ، ورأى من لم يعترف بها خارجاً على الدين ، فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشئون دينهم ودنياهم ألا يستعمل في أمور الدولة هؤلاء الخارجين ، وأن من واجبه أن يحمي جماهير الناس من فكرتهم التي يراها مارقة كافرة ، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين ، لجمود موقفهم ، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول ، ومن ثم استهدفوا لفضبه وإيقاعه بهم ، وقد وضَّح المأمون المشكلة وموقفه منها في كتابين أرسلهما وهو بالرقعة إلى نائبه ببغداد اسحق بن إبراهيم ، ومن هذين الكتابين نقتطف ما يلي :

أما بعد ، فإن من حق الله على خلقائه في أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنته ، والالتزام بعدله في بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا

لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفونهم على حدود إيمانهم ، وسيل فوزهم وعصمتهم ،
ويكشفون لهم عن مخاطر أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الرب
عنهم ، ويعود بالضياء والبيئة على كافتهم ، ويتذكروا ما الله فرضه من
مسئلتهم عما حُملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير
المؤمنين إلا بالله .

وبما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ،
وجليل ما يرجع في الدين من وكفه [الوكف : العيب والإثم] وضرره ،
ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً
من رسول الله وصفه محمد (ص) باقياً لهم ، واشتباهاً على كثيرين منهم ،
حتى حسن عندهم ، وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك
لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرد جلالته بابتداع الأشياء
كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التي لا يُبْلَغ أولها ،
ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء من دونه خلقاً من خلقه ، وحدثاً هو
المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف
فيه ؛ وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس
بمخلوق ؛ إذ كان كلمة الله ؛ والله عز وجل يقول عن القرآن : « إنا جعلناه
قرآناً عربياً ^(١) ، وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها
زوجها ليسكن إليها ^(٢) » ، وقال « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ^(٣) » .

(١) الزخرف الآية رقم ٣

(٢) الأعراف الآية رقم ١٨٩

(٣) سورة النبأ الآية رقم ١٠

« وجهنا من الماء كل شيء حي »^(١) فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة [أى فى حسن الصنعة] وأخبر أنه جاعله ؛ وحده فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ »^(٢) فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه (ص) « لا تحرك به لسانك لتعجل به »^(٣) ، وقال : « وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث »^(٤) وقال : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته »^(٥) وجعل له أولا وآخر فدل على أنه محدود فى قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »^(٦) وقرر أنه نسخ بعضه فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها »^(٧) وقال عز وجل « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق »^(٨) فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها ، وتلا به متقدما ، وقال : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »^(٩) ، وكل محكم مفصل له محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى

(١) الأنبياء الآية رقم ٣٠

(٢) البروج الأنبياء ٢٢٥٢١

(٣) سورة القيامة الآية رقم ١٦

(٤) الأنبياء الآية رقم ٢

(٥) الأنعام الآية رقم ٢١

(٦) فصلت الآية رقم ٤٢

(٧) البقرة الآية رقم ١٠٦

(٨) طه الآية رقم ٩٩

(٩) هود الآية رقم ١

السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قسولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن ، السَّلَامَ في دينهم ، والجرح في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده ، وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلَّ أحدا منهم محل الثقة في أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمور الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعشى وأضل سبيلا ، فقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصهما على عليهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك ، فنقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته ، ولم يقطع حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره ، وافعل

ذلك بمن في سائر عمالك من القضاة ، واشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذاك البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله (١).

وقد تزعم أحمد بن حنبل الفريق الذي عارض فكرة خلق القرآن ، ولكن المطلاع على كتب الأدب والتاريخ يدرك أن أحمد بن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعاً عقلياً ولا نقلياً عن رأيهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجهول لقوله تعالى : «إنا جعلناه قرآناً عربياً» (٢) فإذا سئل : هل المجهول مخلوق ؟ أجاب : نعم . فإذا قيل له فالقرآن إذاً مخلوق رفض أن يجيب بالإيجاب (٣).

وقد احتل أحمد بن حنبل وبعض أصحابه كثيراً من الأذى والضرب لموقفهم ذاك ، وعدم تحوّلهم عن رأيهم ، وقد اعتبرت الجماهير هذا لونا من ألوان البطولة والإيمان فيهم ، وينبغي أن نبرز أن الضرب المتلف وقع بهؤلاء بعد وفاة المأمون ، ويخيل لي أن شيئاً من هذه القسوة العنيفة ما كان ليحصل لو كان المأمون حياً ، ولكن المأمون نصح أخاه المعتصم بأن يأخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكان المعتصم رجل حرب ، فتلقى هذا التوجيه من أخيه كما يتلقى الجندي أوامر قائده . ونفذته تنفيذاً حرفياً فكان فيه قاسياً وغليظاً .

المعتصم : (٢١٨-٢٢٧ هـ)

نكتب عن المعتصم والوائق كلمات قليلة استكمالاً للحديث عن خلفاء

(١) أحمد زكي صفوت : جبهة رسائل العرب ٢ : ٤٠ - ٤٧ هـ

(٢) الزخرف الآية رقم ٣

(٣) أنظر نماذج من هذه المناقشات في طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ - ٢١٥

هذا العصر ، إذ أنى اعتقد أن طابع الدولة قد تغير منذ عهد المعتصم ؛
والمعتصم من أشهر أبطال العباسيين وشجعانهم ، وقد حرّمه الرشيد ولاية
العهد لقلة حظه من العلم ، ولكن المأمون رأى الدولة تموج وتضطرب ،
وتهاب البطل الصنديد أكثر مما تهاب العالم التحرير ، فولاه عهده ، وقد جلب
المعتصم الأتراك ورباهم ، فلما زاد خطرهم في بغداد بنى من أجلهم العاصمة
الجديدة سامرا ، وانتقل بهم إليها .

الوائق : (٢٢٧-٢٣٢هـ)

لم يكتب ابن طباطبا عن الواائق إلا كلمات قليلة تقتبسها منه ونسكتفي بها :
كان الواائق من أفاضل خلفاء بنى العباس ، وكان ليبيّا فطنا فصيحاً
شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، ولما ولى الخلافة ،
أحسن إلى بنى عمه الطالبيين وبرهم (١) .

ونختم حديثنا في الفصل الأول بكلمة عن المذاهب في الشراب ؛ لقد رأينا
مواقف الخلفاء تجاه الشرب ، وكيف كان نهجهم ، ثم كيف انتصر الميل
إلى الشرب والمنادمة لدى الخلفاء ، وبذلك شاع الشراب بين طبقات الناس ،
فما هي الاتجاهات في هذه المسألة ؟ يبدو لي أنه كان هناك اتجاهات ثلاثة
نحو هذا الموضوع :

١ - مذهب أهل الورع والتقوى وهؤلاء استجابوا لقوله تعالى : « إنما
الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
لعلكم تفلحون » . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء

(١) الفخرى ص ٢٠٩

في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ (١) ،
وقد عدَّ هؤلاء القوم كل مسكر خمرًا ، فحرموا كل أنواع المسكرات ،
ثم حرموا قليل ما يسكر كثيره ، وقد قال بهذا الأئمة الثلاثة ، مالك والشافعي
وابن حنبل .

٢ - مذهب المستهترين من الشعراء ومن جرى مجراهم ، وهؤلاء أعلنوا
تمردهم وشربوا كل الأنواع ، وأمضوا لياليهم بين الكأس والطاس ، وقد
عبر عنهم أبو نواس بقوله :

فإن قالوا : حرامٌ قل : حرام
ولكن اللذازة في الحرام
وقوله :

حجٌ مثلي زيارةُ الخمار
ما أبالي إذا المدامة دامت
قول ناهٍ ولا شناعة جار (٢)
وقوله :

لمثلي من الفتيان حلت أخى الخمر
وطابت له اللذات واسترخى السكر (٣)
فقد كان شربي لا يكدر مجلسي

ولا يعتري فيه خصامٌ ولا هجر (٤)
٣ - مذهب الإمام أبي حنيفة وأكثر أهل العراق الذي يفسر الخمر
في الآية السابقة بعصير العنب ، ويقولون بحصر الحرمة فيها ، أما النبيذ وهو

(١) المائة الآيتان ٩١ - ٩٢

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٠٥

(٣) صار السكر مرخصا به

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٠٦

ما أخذ من التمر والزبيب فليس حراماً إذا لم يسكر ويستدلون على هذا بقوله تعالى «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسناً» (١). مادام ذلك لم يسكر، فإذا أسكر كان خمرًا، كما يستدلون على ذلك بقوله (ص): حرمة الخمر بعينها والسكر من كل شراب. ويروى أن عيسى بن موسى استحضر ابن عباس وسأله عن النبيذ فقال: حلال، وقد أدركنا أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه؛ وروى بعضهم أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ الشديد ويقول: إنا نأكل لحوم هذه الأبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا (٢) [أي ليساعد في عملية الهضم]، ويروى الجهمشياري (٣). أن شريك القاضي تحدث عند أبي عبيد الله معاوية بن يسار يوماً بحديث في تحليل النبيذ، فقال عافية القاضي وكان حاضراً: ما سمعنا بهذا الحديث، فقال شريك: وما يضر عالماً أن جهل جاهل؟

وذكر أبو سهل الرازي عن منصور بن أبي مزاحم قال: كنت عند أبي عبيد الله، وحسن بن حسن عنده، وشريك حاضر. فقال أبو عبيد الله لشريك: حدثنا في النبيذ. فحدثه بحديث همام عن عمر ابن الخطاب فيه. فقال حسن: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق. فقال شريك: أجل، شغلك عنه جلوسك على الطنافس، في صدور المجالس، وعرفناه بسعيننا فيه. فاستزاده أبو عبيد الله، فقال: لا أعرض الحديث للكذب (٤).

(١) سورة النحل الآية رقم ٦٧.

(٢) الاصفهاني: محاضرات الادباء ١: ٤١٢.

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٤٤.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.